الأحباش في مصر المملوكية

٦٤٨ـ٩١١هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م

د.عطا أبو ريه*

كلية التربية للبنات، جامعة الطائف،

المملكة العربية السعودية

ارتبطت مصر مع بلاد الحبشة ارتباطا جغرافيا ودينيا وتجاريا وسياسيا منذ القدم كما ربط بينهما النيل الذي ينبع أحد روافده من الحبشة ويخترق أرض مصر ويغذي أراضيها بطميه ويسقيها بمائه.وعلى الصعيد الديني ظلت كنيسة الحبشة تابعة لكنيسة مصر منذ انتشار المسيحية في كليهما وحتى بعد ظهور الإسلام؛ كان بطريرك الإسكندرية هو صاحب الحق في تعيين بطريرك الحبشة. وفي المجال التجاري ارتبطت مصر معها بريا وبحريا وبودلت البضائع بينهما، بيد أن الفارق في الثروة بينهما ضم إلى البضائع المصدرة إلى مصر العبيد والجواري، ناهيك عن أن النظم القبلية التي سادت الحبشة والمناطق المجاورة لها جعلت الإغارة وقطع الطريق وتحيف السابلة إحدى وسائل كسب العيش، وأمس ذلك مصدرا رسميا من مصادر العبيد والجواري الذي يتوارد على مصر من الحبشة. وعلى الصعيد السياسي فإبان العصر المملوكي قامت ممالك إسلامية في القرن الإفريقي متاخمة لبلاد الحبشة ناهيك عن الإمارات الإسلامية التي تأسست على هضبة الحبشة ذاتها وقد أسفر الخلاف العقائدي بين الحبشة وجيرانها عن نشوب حروب شبه متصلة بينهما خلد من استعارها تعصب الأسرة السليمانية في الحبشة لدينها وجعله غطاء شرعيا لإعطاء حروبها مع الممالك الإسلامية صفة المشروعية وتغلفها بالقداسة.

وأفضت الحروب هناك إلى أعداد من الأسرى رجالاً ونساءً؛ فزاد عدد الرقيق بنوعيه الوارد من الحبشة إلى مصر. وقد تنوع التأثير والتأثر في العلاقات المصرية الحبشية إذ أدت إغارة الأحباش على الممالك الإسلامية إلى غضب السلطنة المملوكية التي عبرت عن سخطها بالقبض على بطريرك الإسكندرية لحرمان الكنيسة الحبشية من بطريركها فترد الحبشة بتهديد منابع النيل شريان الحياة في مصر، وتصب كل هذه التأثيرات على تجارة الرقيق خاصة تتابع وصول الرقيق الأحباش إلى مصر، حيث بلغ قدرا أتاح له التأثير في مصر إبان العصر المملوكي. ظهر هذا التأثير جليا في المجالات الاقتصادية والناحية الإدارية وكذلك على الصعيد

---

* ألقي هذا البحث في ندوة "علاقات مصر بشرق إفريقيا عبر العصور التاريخية"، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١١-٢٠٠٤/٥/١٢م.

الثقافي. وحظيت العلاقات السياسية والتجارية والدينية بين مصر والحبشة بدراسات متعددة، أمـا دور الأحباش في مصر المملوكية فلم ينل نصيبا من الدراسة، ومن ثم كان هدف هذا البحث.

تعددت المجالات التي عمل فيها الأحْباش في مصر إبان العصر المملوكي، وانصب جل عملهم في المجال الاقتصادي بخاصة، بيد أن أهم ميادين عملهم ، والتي تركزت فيها جهودهم هو العمـل الإداري ولأنهم لم يكونوا قادة أو ترأسوا العمل الإداري فلم تحفل المـصادر التاريخيـة كثيرا بذكرهم بصورة مباشرة ، ثم جاءت أخبارهم بشذرات متفرقات في هذه المصادر؛ أبانت عن الاختصاصات التي أوكلـت لهم، والأعمال التي أسندت إليهم في المدن الكبرى. ولم تقتصر هذه الأعمال على مجالات بعينها ؛ وإنـما أتسع مجالها وتفاوتت قيمتها الاجتماعية والاقتصادية فـي آن واحد ؛ إذ تراوحت بين أعمال كبرى وأخرى صغرى على الصعيدين ذاتهمـا. وقـد تعـددت طرق جلبهم إلى مصر وهى على النحو التالي،

طرق جلب الأحباش لمصر ودورهم الاقتصادي:

أعقب نزول المسلمين إلى جزيرة دهلك[1] والموانئ الشرقية للحبـشة فـي القـرن الأول الهجري السادس الميلادي ازدهار التجارة بين مصر وهذه المناطق، وبخاصة تجارة الرقيق حتى غدت مصدر دخل كبير للتجار الذين ولجوا هذا المجال خاصة عندما كثر الطلب علـى الرقيـق الأحباش بسبب رغبة العرب المسلمين فيهم وتفضيلهم لهم فضلا عن مـروءتهم،[2] ناهيـك عمـا اشتهر به الأحباش من أمانة وإخلاص في العمل وذلك لأنه شاع حديـث نُسـب إلى النبي ﷺ " من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله بيته بركة ".[3]

ارتقت الأسرة السليمانية عام ٦٦٩هـ /١٢٧٠م عرش مملكة الحبشة والتي عرف عنهـا تعصبها ضد المخالفيـن لها في العقيدة أو المذهب، حتى دخلت حروب مع جيرانها المـسلمين من عرب الطراز الإسلامي وجند الملك يكونوا أملاك (١٢٧٠-١٢٨٥م) كل ما لديه مـن قـوة لمهاجمتـهم[4] واتخذ يكـونوا أملاك من الدين تكئة لشن الحـروب وتجريـد الجيـوش. وهـذه

---

[1] دهلك، جزيرة في بحر اليمن – البحر الأحمر – وهو مرسى بين بلاد اليمن وبلاد الحبشة وكانت منفي لمعترضي الحكم الأموي. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز، ج٢، (بيـروت، ١٩٩٠)، ص٥٦٠؛ تامرات، القرن الإفريقي السليمانيون المنتسبون إلى الملك سليمان الحكيم في أثوبيا، مقال ضمن تاريخ إفريقيا العام، مج٤، مطبوعات اليونسكو، ص ٤٢٨.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، (القاهرة، د.ت.)، ص ٢٣٠.

[3] الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ حديث رقم ٥٧٩٥.

[4] المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مصر، ١٨٩٥، حـ٨. للمزيد عن هـذه الحـروب انظر ص٨- ٣٠؛ عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، ص ١٧١ ؛ رجب محمد عبـد الحلـيم،

الحروب أمدت أسواق النخاسة بما حازت من أسرى، فلم يخل عهد حاكم من حكام هذه الأسـرة من الكثير من السبايا والأرقاء.[٥]

لم يقتصر جلب الرقيق على الحروب، وإنما لعب قطاع الطرق واللصوص من الأحباش، الذين عرفوا باسم الشفتا دورا إضافيا في إمداد الأسواق بالرقيق ؛ فقـد أغـاروا علـى القـرى واختطفوا الرجال والنساء والأطفال وأرسلوا بهم إلى أسواق الرقيق،[٦] وتفاقم دور هـؤلاء حـين استعان بهم ملوك الحبشة في الإغارة على بلدان المسلمين وقطع طريق قوافلهم وسبي من تـصل إليه أيديهم،[٧] وزود أهالي الحبشة سوق الرقيق في مصر بما قاموا بـه فـي قـراهم ؛ إذ يـذكر الحميري أن بعض القرى الحبشية كان يقوم أهلها بسرقة أبناء بعضهم ويبيعونهم للتجـار الـذين يصلون إلى مصر.[٨]

ولعبت الهدايا التي أرسلها ملوك الحبشة إلى ملوك مصر دورا آخر فـي زيـادة عـدد الأحباش في مصر إذ ضمنت هذه الهدايا العديد من الجواري والطواشية[٩] ولا أدل على ذلك ممـا أرسله ملك الحـبشة (ياجيبا صيون بن يكونـوا أمـلاك (١٢٨٥-١٢٩٤م) إلى سلـطان مصـر المنصـور قلاوون (٦٨٩ هـ /١٢٩٠م)[١٠] داود بـن سـيف أرعـد (١٣٨٢ – ١٤١١م) إلى الظاهر برقوق عام (٧٨٨ هـ / ١٣٨٩م) من الذهب ... وعدة جواري حـبش وطواشية حبش،[١١] كما أرسل زرء يعقوب بن أندروس (١٤٣٤ – ١٤٦٨م) إلى الظاهر جقمق

العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، القـاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٦٣ ؛ بتشر، تاريخ الأمة القبطية، القاهرة، ١٩٠٧، حـ٤، ص ٢٨؛ جوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيـا الـسوداء، ترجمة عقيل الشيخ، الدار الجماهيرية، ليبيا ،٢٠٠١، ص ٢٧٧.

Trminghom, J. S , *Islam in Ethiopia* , Oxford, 1952, p. 56.

[5] رجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٣٨.

[6] زاهر رياض، الشفتا في أتوبيا منذ العصـور الوسـطى، بحـث بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مـج ١٩، ج٢، ١٩٦١، ص ٢١٦.

[7] سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسـطى، المجلسة المصرية التاريخية، ح ١٤، القاهرة، ١٩٦٨ ،ص٢٨ ؛رجب محمد عبد الحلـيم، مرجـع سـابق، ص ٤٦ ؛ *Encyclopedia of Islam*, sv. adal.

[8] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٨٥ ص ١٨٠.

[9] الطواشي :الجمع طواشيه ،وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق ،وفي الحريم السلطاني .وكانت لهـم حرمـة وافرة وطلمة نافذة ،ويعد شيخهم من الأعيان .أنظر زين العابدين شمس الدين نجم،معجم الألفـاظ والمـصطلحات التاريخية ،القاهرة ص ٣٦٨.

[10] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الزهـور، تحقيـق محمـد مـصطفي، الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب، القاهرة،١٩٨٢، جـ١، قسم ٢ ،ص ٣٧٩.

[11] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامـل، القـاهرة ،١٩٦١، ص

عام (٨٤٧ هـ / ١٤٤٤م) عدداً وصل إلى سبعين جارية.[١٢]

وقد فطن تجار النخاسة إلى الفائدة المرجوة من خصي بضاعتهم، لأن الخصيان يأتمنون على العمل في المنازل، علاوة عن متانة أجسامهم وقدرتهم على التحمل ولا يختار لخصي الغلمان إلاّ أصلبهم عوداً وأوسمهم خلقة، وقام بتلك المهمة جنس من أجناس الأحباش عرفوا بالخاسة وكانوا يقطنون شمال سحرته[١٣] بخصي من يقع في أيديهم،[١٤] وقام أهل مدينة وشله[١٥] الوثنية أيضاً بهذا العمل رغبة في رفع ثمن العبيد ولأنهم لم يكونوا على دراية عالية بما ينجم عن عملية الخصي من انسداد مجرى البول، فكانوا يبعثون بمن يخصونه إلى مدينة هدية[١٦] مرة ثانية لإزالة الصديد الذي أغلق مجرى البول وإتمام علاجهم حتى يبرءوا من علتهم.[١٧]

ويحمل العبيد بعد ذلك إلى الأسواق منها أسواق مصر سالكاً طريق البحر الأحمر صعوداً نحو الشمال إلى شندى[١٨] وسنار[١٩] ثم اختراق الطريق الصحراوي نحو الشمال إلى قوص

١٧٠؛ إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، مج ٨، القاهرة ، ١٩٥٩،ص ٥٩.

12 السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ٦٨ ؛ إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ٦٣.

13 سحرته،إحدى المدن المسيحية بهضبة الحبشة.

14 ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٠، ص ٩٨.

15 وشله، إحدى المدن المسيحية بهضبة الحبشة.

16 هديه ،إحدى الممالك الإسلامية التي نشأت جنوب هضبة الحبشة ،وطول هذه المملكة ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ،ولم تستمر طويلا إذ قام ملك الحبشة بمهاجمتها عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م وحمل سلطانها أسير إلي عاصمة.أنظر فتحي غيث،الإسلام والحبشة عبر التاريخ ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة ص٨٧،رجب محمد عبد الحليم، الممالك الإسلامية جنوب الصحراء ،سفير للنشر القاهرة ص ٨٥.

17 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة،ج٥ ،ص ٣٢٨، ويذكر د/ رجب محمد عبد الحليم، في كتاب العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة ،ص ٤٨، ودكتور عبد السلام الترمانيتي، في كتاب الرق ،ص ٩٩ ،أن القائمين على عملية الخصي اليهود وبالبحث لم نجد أي دليل على ذلك لا في الكتابان ولا مصادرهما ولكن لا يستبعد هذا عن اليهود لنظرتهم إلى غير اليهود على أنهم من الأغيار وهم الأمم غير اليهودية دون سواها والأغيار درجات أدناها " الأغيار " أو عبدة الأوثان والأصنام وأعلاها الذي تركوا عبادة الأوثان أي المسيحيين والمسلمون انظر عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٧٨ ، ولهذه النظرة لا يستبعد قيامهم بهذه المهمة خاصة وإن العبد المخصي غالي الثمن عن غير المخصي.

18 شندي ،تقع علي بعد ١٠٤ ميل من الخرطوم ،وكانت مركز لمملكة الجعليين في عهد سلطنة سنار وشندي من أهم المراكز التجارية بالسودان ،أنظر نعوم شقير ،جغرافية وتاريخ السودان ،دار الثقافة لبنان ١٩٦٧،صـ١٠٦-١٠٧.

أو أسنا حيث تحمله المراكب النيلية إلى القاهرة،[٢٠] أو ينقل الرقيق براً إلى زيلع،[٢١] وعدل[٢٢] ويواصل رحلته البرية إلى مدينة عيذاب[٢٣] ، ومنها يسوق التجار قطعان العبيد إلى أسواق قوص وأسيوط ثم القاهرة ، ويقسم الجلابة الرقيق إلى فئات ثلاث، الخماسي " دون العاشرة أو الحادي عشر " والسداسي " فوق الحادية عشرة دون الرابعة أو الخامسة عشر " والبالغ " من الخامسة عشر فصاعداً " وأغلى هؤلاء عندهم السداسي.[٢٤]

ويحرص تجار العبيد على بضائعهم ليحققوا أكبر قدر من الربح فيعاملون رقيقهم معاملة حسنة خاصة في المأكل والمشرب فيطعمونهم الخبز المصنوع من دقيق الذرة ويسقونهم من قرب الماء المحمولة على الإبل.[٢٥] ويجمع الرقيق في القاهرة في مكان يعرف باسم الجلابة وهى وكالة ترد إليها القوافل لبيع العبيد و الطواشية بصفة خاصة ومنها يستطيع أهل مصر شراء ما يشاءون وقد تعددت أسواق العبيد في أحياء القاهرة إذ وجد إحداها بالقرب من جامع السلطان قايتباي،[٢٦] كما وجدت أسواقاً أخرى للعبيد[٢٧] ووجدت أخرى بالفسطاط وسميت بدار البركة أو بركة الرقيق،حيث كانت سوقاً يباع فيها هذا النوع من الرقيق،[٢٨] ناهيك عن فنادق القاهرة حيث

---

[19] سنار ،تقع علي مرتفع من الأرض ،وتبعد عن الخرطوم بـ٢٠٧ميل ،وهي إحدى ممالك السودان الشرقي ،وتقام بها عدة أسواق وتأتيها البضائع من بلاد الهند ،كما لها علاقات مع اليمن ،وأكبر سوق لها سوق الرقيق الواقع بالقرب من سراي الملك ،أنظر مكي شبيكه،السودان عبر القرون ،دار الثقافة لبنان صـ٧٦-٧٧، نعوم شقير ، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

[20] بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد اندراوس، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص ٢٤٨- ٢٥٠؛ زاهر رياض ،الإسلام في أثوبيا، ص ١٨٢- ١٨٣ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢١ـ ٢٢.

Trminghom , Op. cit., p. 57.

[21] زيلع، قرية على ساحل البحر الأحمر من ناحية الحبش وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد على ساحل عدن وزبيد، وهي محل خط إقلاع، ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الإسلام الساحلية لذلك وجد بها سوق، انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٣، ص ١٦٤-١٦٥ ؛ ابن سعيد، مصدر سابق، ص ٩٩.

[22] *Encyclopedia of Islam*, sv. adal.

[23] عيذاب، بلدة على بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى صعيد مصر، انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، جـ٤، ص ١٧١ ؛ الحميري، مصدر سابق ، ص ٤٢٣-٤٢٤.

[24] بوركارت، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

[25] نفس المرجع، ص ٢٤٧.

[26] نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

[27] ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ، ج٤، ص ٣٤؛ السخاوي الضوء اللامع. ج٢، ص ٥٧.

[28] السيوطي، حُسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨، ج١ ، ص ١١٤ ؛ محمد مختار، هداية المريد في شراء الجواري وتقليب العبيد، القاهرة، ١٩٩٧،

وجدت فنادق خاصة بالطواشية[٢٩] وفي الفسطاط كان فندق الحجر مخصصاً لبيع العبيد.[٣٠]

أما أسعار العبيد فقد كانت تتفاوت من عبد إلى آخر،حيث كان من الطبيعي أن يزداد سعر العبد أو ينقص تبعاً لحالته الصحية أو عمره أو مصدر جلبه أو وسامته؛ فالعبد يصل سعره ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ درهم وقد ينخفض إلى ١٠٠ درهم أحياناً، ويرتفع إذا حاز مؤهلات من قوة جسدية أو مهارة في عمل ما فيصل ثمنه إلى ٤٠٠ دينار، والشبان أكثر طلباً من الرجال والإقبال على الفتيان أكثر من النساء [٣١].

وقد أشرفت الدولة المملوكية على بيع العبيد في الأسواق من خلال المحتسب وأمنائه، إذ كان لهم دكه في سوق العبيد [٣٢]، لمراقبة ما يتم من عمليات البيع والشراء؛ لأن الشرعي الإسلامي حرم الغش لذا كان على تاجر العبيد الالتزام بما اتفق عليه الفقهاء في مراعاة صالح العبيد [٣٣]، فكان عليهم مراقبة النخاسين المحتالين خشية إبراز جمال بعض الجواري والعبيد المعروضة وإخفاء عيوبهم [٣٤].ولم تكن غاية الدولة من وجود المحتسب وأعوانه في هذه الأسواق والوكالات والفنادق الحرص على عدم الغش فقط وإنما لضمان تحصيل الرسوم التي قررتها على كل عبد يتم بيعه بتلك الأسواق لصالح خزانة الدولة [٣٥]، وراقب المحتسب أيضاً السماسرة حتى لا يبيعون عبداً أو جارية دون معرفة البائع الذي يثبت أسمه وصفته في دفتر خاص به خوفاً من أن يكون المبيع حراً أو مسروقاً ،[٣٦] ومن أمثلة السماسرة على بن محمد بن نجم الدين بن المغيث المصري الذي تكسب من سمسرة العبيد.[٣٧]

ص ٨٦.

[29] ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ج١، ص ٣٠٢.

[30] محمد مختار، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

[31] نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

[32] ابن دقماق، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٣ .

[33] ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص ٢٣٨.

[34] وللمزيد عن إخفاء النخاسين والسماسرة لعيوب العبيد انظر الحسن بن عبدون البغدادي، رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص ٣٧٩- ٣٨٤؛ ابن الأخوة، مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ المالقي، أدب الحسبة، تحقيق حسن الزين، بيروت ،١٩٨٧، ص ٦٣- ٧٢.

[35] صبحي لبيب، الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية، بحث ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٨٦،ص ٢٨٩.

[36] ابن الأخوة، مصدر سابق ص ٢٣٠.

[37] السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص ١١.

استوطن العبيد الحبشي مصر وعمل بعضهم في مجال التجارة داخل أسواق مصر أو خارجها، وعمل بعضهم لصالحه بعد عتقه، وآخرون لصالح سادتهم، ومن هؤلاء مفتاح الحبشي مولى الموفق الأبي، الذي عمل بالتجارة في سوق أمير الجيوش[٣٨] ؛ أما مبارك الحبشي عتيق الفاسي فعمل بالتجارة الخارجية، وقصد بلاد العجم لصالح سيده وأثرى من وراء هذا العمل ثراة كبيراً. [٣٩] وسافر آخرون بتجارتهم إلى الحجاز واستقروا بها مثل موفق الحبشي البرهانى الظهيري الذي مات بمكة عام (٨٩٢هـ/١٤٨٦م). [٤٠] واشتغل الأحباش أيضاً في تجارة الكارم التي عمل فيها الكثير من التجار منهم أحمد بن محمد بن بركوت الحبشي التاجر الكرمي، [٤١] الذي انخرط مع تجار الكارم، حيث بلغ عددهم خمسة آلاف شخص تاجر معظمهم في سلع الهند والصين والحبشة [٤٢]، حيث استوردوا منها الذهب والفضة والمر وسن الفيل، [٤٣] عبر ميناء بربره التابع لملك الحبشة. [٤٤] وتولى بعض الأحباش تحصيل المكوس ومن هؤلاء ريحان الحبشي الذي تولى إمارة المكس بجدة أثناء دولة السيد على بن عجلان الذي خضع لسلطة المماليك في مصر ، وجني من وراء عمله هذا أموالاً طائلة مكنته من شراء ممتلكات عدة، وبعدها ترك هذا العمل واستقر به المقام في مدينة زبيد باليمن إلى أن مات عام (٨١٦هـ/١٤١٣م).[٤٥]

لم يكن العمل بالتجارة هو الميدان الاقتصادي الوحيد الذي طرقه الأحباش وإنما عملوا ببعض الحرف الأخرى مثل مفتاح الحبشي،السابق ذكره الذي استقر به المقام بسوق أمير الجيوش واتخذ به حانوتاً واحترف صناعة التجليد التي درت عليه دخلاً عاش منه [٤٦] ؛ وريحان الحبشي التعكرى الذي اشتغل صائغاً بسوق الصاغة؛ وريحان الحبشي العطار الذي اتخذ لقبه من انتسابه إلى حرفة العطارة بعد أن اتخذ له حانوتاً بإحدى الأسواق وعمل بتجارة العطارة.[٤٧]

ولم تكن حركة التجارة بين مصر المملوكية والحبشة دائمة الازدهار، تحمل العبيد

---

[38] نفس المصدر، ج ١٠ ،ص ١٦٦.

[39] نفس المصدر، ج ٦ ،ص ٢٣٨.

[40] نفس المصدر، ج٦ ،ص ١٦٩.

[41] ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣ ،ص ١٢.

[42] نعيم زكي، مرجع سابق ص ١٤٢.

[43] المقريزي، الإلمام، ج٣ ،ص١٨،١٧؛ القلقشندي، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٠٤ ؛ زاهر رياض، الإسلام في أتوبيا، ص ١٩٢.

[44] بربرة، مدينة تتبع بلاد الحبشة وتقع على ساحل اليمن، انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق،ج١ ،ص ٣٦٩-٣٧٠؛ ابن سعيد، مصدر سابق، ص ٨٢؛ نعيم زكي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

[45] السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٣٠.

[46] نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

[47] نفس المصدر، ج٣، ص ٢٣٠ – ٢٣١.

والجواري إلى مصر بانتظام، وإنما تحكمت العلاقات السياسية في هذه التجارة سلباً وإيجاباً ؛ فإذا ما قام ملك الحبشة بالإغارة على الممالك الإسلامية المجاورة له [48] أو عمل على إعاقة وصـــول مياه النيل إلى مصر،[49] فإنه يثير بذلك حفيظة السلطان المملوكي الذي يرد على ذلك عادة باعتقال بطريرك الإسكندرية،[50] لمنعه من تنصيب بطريرك لكنيسة الحبشة.و حينذاك يمنع ملك الحبـــشة قوافل التجارة القادمة من مصر من دخول بلاده، والحصول على العبيـــد منهـــا.وكـــان يخـــشى السلطان المملوكي كساد هذه التجارة، وما تدره على بلاده، فيطلق سراح البطريرك، ويسترضى ملك الحبشة حتى تستعيد حركة القوافل مسيرتها من جديد.[51] واستغل بعض الرهبان ذلك وقـــاموا بالعمل في التجارة خفية،إذ كان ذلك محرماً عليهم ،ومن هـــؤلاء الراهـــب بـــولص المعـــروف بالحبشي،مستغلاً بذلك وظيفته حتى لا يتعرض لبطش ملك الحبشة وأتباعه، وأثرى ثراءً كبيراً من هذه التجارة.[52]

وقد استغل التجار السفارات المتبادلة بين سلطان مصر وملك الحبشة وخرجـــوا معهـــا بالقوافل لضمان الحماية وسلامة تجارتهم، ومن الذين أفادوا من ذلك يحي بن شاديك المعـــروف بقاصد الحبشة، [53] ويحي بن عجلان الأسيوطي الذي سافر الحبشة للاسترزاق، [54] والغالب علـــى الظن خروج هؤلاء وأمثالهم مع قافلة مثقال الظاهري جقمق الحبشي الطواشي، مقدم المماليـــك، الذي أرسله السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـــ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) رسولاً إلى ملك الحبشة [55]، زرء يعقوب بن أندراوس (٨٣٨ – ٧٨٣ هـــ / ١٤٣٤ – ١٤٦٨ م).

١- دور الأحباش الإداري:

جلب المماليك عدداً كثيراً من العبيد الأحباش للعمل كخدم في القصر السلطاني أو الجيش ومن أجل إعدادهم لهذه المهمة، بذل المماليك عناية فائقة لتزويدهم بالمستوى الثقافي اللائق، ممـــا

---

[48] المقريزي، الإلمام، ص ١٧-١٨ ؛ ابن أياس، مصدر سابق، ج١، قسم ٢، ص ٣٨٩؛ بتلر، مرجع ســـابق، ج٣، ص ٢٥٤.

[49] ابن أياس، مصدر سابق، ج١ قسم ١، ص ٢٠٤، ٢٢٣؛ ج٢ ص ٢٣٩؛ جوزيف كي زيربو، مرجع ســـابق، ص ٢٧٥.

[50] السخاوي، التبر المسبوك، ص ٧٢؛ ابن إياس، مصدر سابق ج ٢، ص ٢٦٤.

[51] سعيد عاشور، أضوء جديد، ص ٢٨؛ إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة، ص ٥٦.

[52] ابن تغرى بردى، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكة، ١٩٨٣، ج١، ص ٢٠٣.

[53] السخاوي، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص ٢١٦ ؛ ابن إياس، مصدر سابق، جـــ٣، ص ١٧٩.

[54] السخاوي، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص ٢٣٥.

[55] نفس المصدر، جـــ٦، ص ٢٣٩.وللمزيد عن الرسل إلى للحبشة انظر ابن إياس، مصدر سابق،جـــ١، قسم ٢، ص ٢٨٩- ٢٩٠.

مكنهم من تكوين طبقة إدارية تعمل في خدمة الدولة المملوكية ،وأطلق عليهم أسم الطواشية، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية، وعدوا شيخهم من أعيان الناس [٥٦]. وغنى عن القول أن مهام الطواشية تعددت إلى عدة مهام وسوف نتناولها بالتفصيل.

وهكذا، لم يقتصر الطواشية على مهمة واحدة، بل تنقلوا بين المهام التي أوكلت إليهم مثل عنبر الحبشي الطنبذى الطواشي الذي اشتراه التاجر نور الدين الطنبذى، بيد أنه ترك سيده للعمل في خدمة الأمراء حتى انتهى به المطاف إلى خدمة الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) ؛ وترقى في منصبه داخل القصر السلطاني حتى بلغ منصب مقدمي الطباق البرانية وبلغ الغاية حتى أصبح مقدم المماليك ،[٥٧] وهو لقب أطلق على من يتولى أمر الخدم الخصيان المعروفين بالطواشية الذين يعملون في خدمة السلطان مما أعطاه الحق في التحدث بشأنهم والتحكم فيهم وحضور تفرقة الجامكية،[٥٨] وهى الراتب المربوط للشهر أو أكثر.[٥٩] وبهذا حاز عنبر صفات من علو شأن منصبه في القصر السلطاني وقرباً من السلطان جقمق الذي اهتم بتثقيف عنبر الحبشي.[٦٠]

وبلغت ثقة السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م) في محسن النفحي، أو الفتوح الطواشي الحبشي، أن جعله خازناً، [٦١] أي مشرفاً على خزائن السلطان من نقد وأمتعة. [٦٢] ولم يكن ذلك نهاية ما بلغه طواشية الحبشة، وإنما بلغ بعضهم منزلة كبرى لدى سلاطين المماليك حتى منح بعضهم لقب أمير، مثل بدر أبو المحاسن الصوابى العادلي الحبشي، الذي نسب إلى سيده الصوابى العادلي، وبلغ بدر الدين منصب أمير مائة ثم مقدم ألف، وهو منصب يعد من أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، واقتصر على أرباب السيوف الذين يكون في خدمة كل منهم مائة مملوك ويكون مقدماً على ألف جندي من أجناد الحلقة إبان

---

[56] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ،١٩٧٦، ص ٤٥٥؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦ ،ص ٣٠٨.

[57] السخاوي، الضوء اللامع، ج٦ ، ص ١٤٨.

[58] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، قسم ٣، ص ٧٨٠ ؛ القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٦؛ ابن إياس، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٩١.

[59] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٦.

[60] السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص ١٤٨.

[61] نفس المصدر ،ج٦، ص ٢٤٠.

[62] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٣٢.

الحروب.[٦٣] لذلك أشرف بدر الدين أبو المحاسن الحبشي على مائة مملوك خصيان خصصوا لخدمة السلطان وعرفوا بالطواشية، وأمس أميراً عليهم،[٦٤] واستمر بدر الحبشي في منصبه هذا أكثر من أربعين عاماً.[٦٥]

وشارك الأمراء بنصيب كبير في شراء العبيد الأحباش وعملوا على تربيتهم في قصورهم منذ طفولتهم وبذلوا الغاية لتزويدهم بمستوى ثقافي وأعطى بعض الأمراء أسمائهم لعبيدهم الأحباش في كثير من الأحيان، مثل جوهر القنقبائى[٦٦] الطواشي الحبشي، الذي عمل في خدمة سيده حيناً من الدهر، واستمر في خدمته حتى انتقل إلى خدمة علم الدين بن الكويز. وقد أعجب الأمير بجوهر لحسن تربيته وحفظه القرآن وتدريسه وإنفاقه على حملة القرآن،[٦٧] فكان جزائه من صنف عمله، إذ ذاعت شهرته حتى اختاره اللالا[٦٨]،أحد طواشي الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤٢ هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م)، [٦٩] ليكون ضمن طواشي السلطان الأشرف.ووثق السلطان الأشرف في جوهر لما ظهر عليه من رجاحة العقل والسكون وحسن التدبير، فجعله على باب السلطنة،حيث أهتبل جوهر الفرصة، وجد في خدمته وتقرب للأشرف برسباي حتى ولاه الخازندارية [٧٠] فبات من حقه الدخول على الحريم السلطاني، وأمس مسئولاً عما يرد إلى الخزينة

---

[63] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، حـ١، قسم ١، هامش ١.

[64] محمد أحمد الدهان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٢، ١٤٢.

[65] ابن تغري بردى، الدليل الشافي، حـ ١، ص ٨٣.

[66] جوهر، القنقبائي،نسبة لقنقباي الجركسي الطواشي الحبشي الخازندار الزمام بالباب السلطاني ،وتنقلت به الأحوال إلي أن خدم عند العلم بن الكويز فسار عنده سيرة حسنة لأنه طان يحب اهل القرآن ،ولما مات أبن الكويز أنتقل جوهر بالأشراف بواسطة سمية جوهر ،فاستخدم في باب السلطان وقربه منه وانس به ثم استقربه المقام بالخازندارية وتقرب إليه الناس وصار يقضي حاجاتهم ،وأخذ يتقرب للسلطان بجمع أموال أكثرها لا يحل ، ولجوهر القنقبائي وآثر كثيرة مثل بناء مدرسة بجوار الحامع الأزهر ودار بدرب الأترك ،توفي جوهر عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م.أنظر السخاوي ، الضوء اللامع ،جـ٣، ص ٨٢-٨٣.

[67] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨، حـ٤، ص ١٦٨.

[68] جوهر اللالا ،عتيق أحمد بن جلبان ،اتصل جوْهر بخدمة الأشراف فتولي وظيفة زمام ،ولما تولي السلطان العزيز يوسف زاد من سلطات جوهر ولكن لم يدم حيث مرض بالقولونج وتوفي عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م.أنظر،المقريزي، الخطط جـ٢ ، ص ٢٤٤؛ السخاوي ، الضوء اللامع جـ٣، ص ٨٤.

[69] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر ، حـ ٤، ص ١٢٢.

[70]الخازندارية ،كلمة (خازن)عربية وكلمة (دار)فارسية بمعني ممسك ،خازن ،أمين الصندوق وأمين الخزانة وهو الذي يتولي أعمال السلطان أو غيرهما والقائم علي حفظ محتويات الخزينة،زين العابدين، مرجع سابق، صـ٢١٢،٢٢٠، ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر ، حـ ٤، ص ١٦٨.

وما يخرج منها من نقود فضلاً عن توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين. [٧١] وقد ألقت المقادير بالفرصة إلى جوهر عندما مات الزمام خشقدم؛ فترك الخازندارية وحل محله في منصب الزمام ؛ فأصبح المتحدث الرسمي على باب ستارة السلطان [٧٢]، وبذلك عرف الناس جوهر القنقبائى وتقربوا إليه وتزاحموا على بابه لما عرف عنه السخاء وكثرة العطاء ، لاسيما مع أبناء جلدته [٧٣].

وقد لعبت الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد [٧٤]، أكبر الأثر في استعانة الأشرف برسباي بجوهر القنقبائى في تحصيل الأموال من عدة وجوه، وحرص جوهر على تبيان نفسه عفيفاً عما بأيدي التجار، وأنه لم يكن يعسف بهم لولا أنها أوامر السلطان الأشرف برسباي، وفي ذات الوقت لم يستجب إلى طلبهم ببيع بضائعهم ،وإنما منح هذا الحق للتجار الفرنج بعد أن أخذ إتاوة منهم نجم عن ذلك ركود سوق التجار المصريين والاستدانة [٧٥].

خلف السلطان جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) سلفه الأشرف برسباي فتقلص دور جوهر حيناً، بيد أن وظيفته كزمام أي حفظ الحريم [٧٦]، أتاحت له الاتصال بزوجة السلطان جقمق التي أعادت له دوره وسمحت له بالقيام بأعماله السابقة فجمع بذلك بين الخازندارية والزمامية. [٧٧] واستغل جوهر منصبه وتحكم في بعض المناصب ومنحها لمن يدفع، فولى ولى الدين بن قاسم قضاء دمياط بعد أن دفع له المال الجزيل علاوة على قدر آخر من المال يدفعه بعد التولية، واستغل جوهر كونه خازنداراً ،[٧٨] واستأجر الأوقاف بأجر زهيد ثم أجرها للناس بأكثر مما استأجرها، وجاز لنفسه الفرق بين الأجرتين.[٧٩]

ولم يكتف جوهر بالتربح من الناس وإعطاء الوظائف لمن يبذل المال، وإنما تحكم في

---

[71] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٣٢ ؛ مصطفي عبد الكريم، المرجع السابق ، ص ١٥٦.

[72] القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٩– ٤٦٠.

[73] ابن حجر، إنباء الغمر، ج ٤ ،ص ١٦٨.

[74] المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠ ص ٧٤، نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٣٣٥.

[75] ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩.

[76] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٩.

[77] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٤، ص ١٦٩.

[78] المقريزي، السلوك، حـ١ قسم ٣، ص ٧٨٠ هامش ٣ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٤، ص ١٦٨؛ ابن إياس، مصدر سابق، حـ٣، ص ١٥٥، نحـ ٤، ص ٢٩١، مصطفي عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٥٦.

[79] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة؛ ١٩٨٠، ص ٣٥٦.

عزل وتعيين النواب بقرار من نفسه في سفور ودون مواربة، إذ وقع القرار باسم "الداعي جوهر الحنفي"، فأصبح بذلك يمثل دولة داخل الدولة، من خلال مراسيم التعيين أو كتب التوصية.واتسع نفوذ جوهر في تحصيل رسوم الإقطاعيات، فقام باستئجار القرى بثمن بخس، إذ أجرها بخمسين ديناراً في الوقت الذي كانت تغل قدر المائة أو أكثر، وفي ذات الوقت يدفع الإيجار بحساب الدينار إحدى عشرة وربع درهم وزناً، في حين أنه كان يساوى آنذاك أربعة عشر درهماً وربع درهم. احتكر جوهر أيضاً بيع العسل وفرضه على المشترين بثلاثين درهماً في الوقت الذي يساوى عشرين درهماً ونحوها، وخشي الناس مخالفته في شئ مما يرومه، لأن من يخالفه لا يأمن على نفسه وماله علاوة على أنه امتنع [1] – في بعض الأحيان – من تسديد إيجار الأرض التي يستأجرها.[٨٠] لم يكن ذلك بغريب في ظل حكم سلاطين المماليك الذين انشغلوا بجمع المال لتعويض تكاليف الحملات العسكرية المتعددة، وفي عصر تميز بالخلل والانحطاط بسبب الخلل في النظام الإقطاعي.[٨١] وقد استمر هذا المملوك في أفعاله هذه حتى بلغ سن السبعين مخفياً هذه الأفعال وراء المواظبة على الصلاة والتلاوة وتقريب أهل القرآن والتصدق على فقهاء الحرمين.[٨٢]

ولم يكن جوهر وحده من بين الأحباش الذي بلغ هذا الشأن من المناصب وإنما تولى ياقوت الحبشي بن عبد الله الشيخي الطواشي الحبشي منصب مقدم المماليك ،[٨٣] وتولى ذات المنصب ياقوت بن عبد الله الأرغونى شادي الطواشي الحبشي (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م)،[٨٤] وكذلك كان مرجان العادلي مقدم المماليك حبشي الجنس وصاحب شدة وبأس وعسوفة زائدة حتى توفي عام (٨٦٥ هـ / ١٤٦٠م) ،[٨٥] وفي عام (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م) شغل منصب مقدم المماليك أيضاً مثقال الحبشي، ولكن نزل عليه غضب السلطان محمد بن قايتباي (٩٠١ – ٩٠٣ هـ / ١٤٩٦ – ١٤٩٨ م) فنفاه إلى بيت المقدس وما أن عاد من منفاه حتى وافته المنية سنة (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م).[٨٦] وقد تولى منصب الزمامية والخازندارية الكبرى أيضاً جوهر

---

[80] حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩.

[81] نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

[82] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩

[83] ابن تغري بردى، الدليل الشافي، ج٢، ص ٧٧٢ – ٧٧٣.

[84] نفس المصدر، جـ٢، ص ٧٧٣.

[85] ابن إياس، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٧٢.

[86] ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٦٠.

الدوروزى الحبشي ،[٨٧] وكذلك مرجان التقوى الطواشي الحبشي ،[٨٨] وجوهر المعين الحبشي.[٨٩]

وحاق ببعض الأحباش الذين تولوا المناصب الإدارية بعض النوازل في نهايـــة عـــصر المماليك الجراكسة، خاصة أن تلك الفترة اتسمت بكثرة ثورات المماليك الجلبان حينمـــا تـــأخرت رواتبهم، لما حل بمصر آنذاك من مجاعات وأزمات اقتصادية، دفعت السلاطين بفرض ضرائب جديدة مثل ضريبة نصفين من الدراهم على الغلة[٩٠]، إلى جانب مصادرة الأموال.[٩١]وطالـــت يـــد السلطان إلى أموال الأمراء حتى ذكر البعض أنه عندما كان ينفذ ما في بيت المال كان الـــسلطان ينظر إلى ما في أيدي الجند والعمال وحلى النساء،[٩٢] وحلت النقمة على أموال محـــسن الخـــازن الحبشي الطواشي، [٩٣]متولي توزيع الصدقات على الفقراء والمستضعفين من خلال كيس مملـــوء بالنقود [٩٤] إذ أتهم بجمع ثروته مستغلاً منصبه، فاستصفي السلطان أمواله وخلعـــه مـــن منـــصبه وأنزل عليه غضبه. وعانى محسن الخازن الحبشي الطواشي من الاضطهاد حتى تولى الـــسلطان قانصوه الغوري فأعاده إلى منصبه سنة ٩٠٥هـــ/ ١٤٩٩م[٩٥]، بيد أنه لم يهنأ به طـــويلاً، إذ مـــا لبث الجند أن ثاروا لعدم سداد رواتبهم، مما اضطر السلطان إلى مصادرة أموال معظم موظفيـــه ومنهم محسن الخازن.[٩٦] والغالب على الظن أنه بلغت السلطان وشاية عن محسن الخازن لما حل به، فأنزل عليه حنقه سنة ٩١١ هـــ / ١٥٠٥ م ونفاه إلى ميناء سواكن.[٩٧]

وقد اشترى الأمير طرباى الأتابكى سرور الحبشي، وعمل على تعليمه كما أحسن تربيته

---

87 نفس المصدر، ج٣، ص ٢٥ ؛ الصيرفي، أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبـــشي، دار الفكـــر العربـــي ،القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٤.

88 ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٦٧.

89 نفس المصدر، ج٣، ص٣٥٥.

90 نفس المصدر، ج٣، ص٣٣١ ؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، الهيئـــة المـــصرية العامـــة للكتاب ،القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٢٧.

91 ابن إياس، مصدر سابق،ج٣، ص٤٠٨.

92 إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القـــاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٥٩.

93 ابن إياس، المصدر السابق،ج ٣، ص٤٠٨.

94 القلقشندي، مصدر سابق، جـــ٥، ص ٤٦٢- ٤٦٣؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص١٥٦.

95 ابن إياس، مصدر سابق،ج ٣، ص٤٤٣.

96 نفس المصدر، جـــ٤، ص ١٦.

97 سواكن، مدينة عامرة على ساحل بحر القلزم – بلاد الحبشة – وفيها متاجر ويخرج منها رقيق الحبـــشة والبجـــاه واللؤلؤ الجيد وتسير منها السفن إلى اليمن وأهلها مسلمون انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، حـــ٣، ص ٣٧٦ ؛ الحميري، مصدر سابق، ص ٣٣٢؛ ابن إياس، مصدر سابق، حـــ ٤، ص٨٠.

وأعطاه اسمه ثم اعتقه .فاتصل بخدمة السلطان الظاهر برقوق (٧٨٧ – ٨٠١ هـــ / ١٣٨٢ – ١٣٩٩ م) وصار في منصب الجمدارية،[٩٨]حاز هذا الطواشي ثقة السلطان، فترك له استئجار بلاد الجيزية لصالح الدولة ؛ ولقربه من السلطان بحكم وظيفته ، أعتز بنفسه وتأنق في ملبسه ومركبه، ونسق بيته، وواظب على التوجه للجامع الأزهر لتأدية الصلاة.واختلف بعض المـــؤرخين حـــول أمانته، فمنهم من أتهمه بأنه أدين بمائة ألف دينار قرضاً، بيد أن ابن الصيرفي ناقش ذلك وخلص إلى أن هذه الأموال كانت ملكاً لأشخاص وثقوا في سرور الحبشي وائتمنوه على أموالهم لغرض ما،[٩٩] شاهداً بذلك على أمانة هذا الحبشي.

وهكذا توطدت العلاقة بين الطواشية الأحباش وبين الأمراء المماليك فـــأطلعوهم علـــى أسرار حياتهم وسمحوا لهم بالإشراف على خزانة ملابس السلطان وإلباسه الثياب الخاصـــة بكـــل مناسبة ،[١٠٠] فكان منهم الطواشي المتوفى عام ٨٩٥ هـــ / ١٤٨٩م ،[١٠١] سعيد الحبشي.[١٠٢]

وتولى الأحباش أيضاً منصب ساقي السلطان على الموائد والإشـــراف علـــى الـــسماط وتقطيع اللحم وسقى الشراب بعد رفع السماط ،[١٠٣] ومنهم مثقـــال الـــسوداني الظـــاهري جقمـــق الحبشي الطواشي، الذي كان ذا ضخامة أعطته قدراً مـــن الإجـــلال بـــين الأتـــراك والأمـــراء والخدام،[١٠٤]وترقى إلى منصب رأس نوبة السقاة، أي ضبط المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم في حال مخالفتهم للقوانين والأوامر الصادرة لهم أثناء قيامهم بالخدمة ،[١٠٥]وحظي مثقال السوداني الحبشي بمرتبة عظيمة لدى السلطان جقمق، فسمح له باتخاذ دار بالقرب من الأزهر وزاد فيهـــا وخالط الناس.[١٠٦]

---

[98] ابن الصيرفي، مصدر سابق، ص ٨٥. الجمدارية، وصاحبها يعرف بالجمدار وهو الذي يقـــوم بإلبـــاس الـــسلطان انظر: القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٩، سعيد عبد الفتـــاح عاشـــور، العـــصر المملـــيكي، ص ٤٢٧ ؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص ١٢٦.

[99] ابن الصيرفي، مصدر سابق، ص ٨٥.

[100] القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٣ ؛ محمد أحمد الدهان، مرجع سابق، ص ٥٤ ؛ مصطفي عبد الكـــريم، مرجع سابق، ص ١٢٦.

[101] السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٢١.

[102] نفس المصدر، ج٣، ص ٢٥٧؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٢، ص ٥٢٨.

[103] القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٤.

[104] السخاوي الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٣٩.

[105] القلقشندي، مصدر سابق، ج٤، ص ١٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٤٠ ؛ مصطفي عبـــد الكريم، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

[106] السخاوي الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٣٩.

وتولى الأحباش مناصب ذات حساسية في الدولة، منها منصب مهتار الطشتخاناه، وهـذا المنصب الذي اختلف بعض المؤرخين حول المهام الموكلة إلى من تولاه، فذكر البعض أنه أطلق على كل كبير طائفة من غلمان البيوت، بينما ذكر فريق أنه اختص بأشربة السلطان والفراش،[١٠٧] واعتقد بعض آخر بأن صاحب هذا المنصب اختص بجباية الأمـوال مـن البغايـا[١٠٨] بعـد أن خصصت الدولة مستوفي لتحصيل الرسوم من كل ماخور.[١٠٩] واختارت الدولـة بعـض العبيـد الطواشي وألزمتهم بمسؤولية تحصيل هذه الضريبة مثل مسعود الحبشي. ويبدو أنه اختص نفـسه ببعض هذه الأموال حتى كثر ماله وخدمه لما حصل عليه من هذه الأموال.[١١٠] كما اختص بعض الأحباش متولي تنفيذ العقوبة على المذنبين، ومن هؤلاء بدر الحبشي، وعرفت هذه الوظيفة بلقب هجينا.[١١١]

الجواري الحبشيات:

تعارف الفقهاء على أن الجواري والإماء هن كل من أخذت أسـيرة فـي الحـروب لأن الشريعة الإسلامية حرمت قتل النساء والأطفال إذا كانوا من أهل الكتاب،[١١٢] كذلك كل امرأة نقلت قسراً من بلاد العدو شريطة أن تكون غير مسلمة[١١٣]، فالشريعة الإسلامية لا تجيز سبى المسلمات أو استرقاقهن، علاوة على كل من تلد أمة مملوكة من أب عبد أو غير مالك لها، مسلمة كانت أو غير مسلمة، وكذلك كل من تشترى من أسواق الرقيق[١١٤].وقد فطن فريق من التجار إلى ما تدره مثل هذه التجارة من أرباح فحضوا على خطف الصغار والكبار من بني الإنسان وبـاعوهم بيـع السلع في الأسواق،[١١٥] ومع نزول البلاء، بتدني الظروف الاقتصادية التي ألمت ببلاد الحبشة مع الفقر وقسوة الضرائب، [١١٦]وجد البعض الخلاص في اختطاف أبناء جنسهم والإثراء من الاتجـار

---

[107] القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٧٠؛ محمد أحمد دهمان، مرجع سابق، ص ١٤٦؛ مصطفي عبـد الكـريم الخطيب، مرجع سابق، ص ٤١١.

[108] ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، سلسلة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٠، ج٩، ص ٤٧.

[109] صلاح الدين المنجد، الحياة الجنسية عند العرب، بيروت، ١٩٧٥، ص ٨٨.

[110] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ١٥٨.

[111] نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

[112] الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، شركة ومكتبة مصطفي البـابي الحلبـي، القـاهرة، ١٩٧٣، ص ١٢٦-١٢٨.

[113] جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال القاهرة ١٩٢٧، ج٤، ص ٢١.

[114] ابن سحنون، المدونة الكبرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨ ،ج ٣، ص ١٤٠٧ – ١٤١٠.

[115] محمد عبد الرازق، الناصر محمد بن قلاوون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة أعلام العـرب القـاهرة، ص ٦٨.

[116] زاهر رياض، الإسلام في أثوبيا، ص ١٦١ – ١٦٤ ؛ رجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٩٨، ١٢٠.

فيهم. وعادة ما كانت تباع الجواري في أسواق خاصة عرفت بأسواق الرقيق السود في أسيوط والقاهرة – كما سبقت الإشارة – ولكن الجواري اللواتي اتصفن بصفات خاصة كن لا يبعن في هذه الأسواق علانية، لما في ذلك من إهانة لهن وتصغيراً لشأنهن، ومن ثم جرت العادة أن يتم البيع في منزل خاص على يد النخاس بعيداً عن هذه الأسواق.[١١٧]

واتصفت الجواري المجلوبات من كل بلد بصفات معينة، فمنهم من يستخدمن للرضاعة لكونهن أشد خلق الله وأجلدهن على الكد وفيهن حنان [١١٨]وهدوء النفس وسلاسة الانقياد والأمانة على النفوس، [١١٩]وتخصصت بعضهن في الغناء.[١٢٠]والغالب على الظن أن الجواري الحبشيات شكلن كثرة عددية في مجتمع القاهرة المملوكية وعلى الأخص في نهاية القرن الثامن الهجري[١٢١] فليس من المغالاة القول بأنه قلما وجدت داراً بالقاهرة إلا وبها بعض الجواري الحبشيات ،مثل منزل العماد يحي بن محمد بن فهد ،[١٢٢]وكذلك منزل النجم الأصفهاني حيث خدمت غزال الحبشية ،[١٢٣] ومنزل الناصر محمد بن الأشقر شيخ شيوخ خانقاة سريا قوس، والذي شابته سمرة اللون لولادته من أم كانت جارية حبشية،[١٢٤]و يؤكد هذه الكثرة وجود ضامن للعبيد الأحباش، اختص برد العبد أو الأمة إلى سيدها، إذا هربت تمرداً أو عناداً مقابل قدر من المال. ويبدو أن هذا الضامن لم يكتف بما يدره عليه هذا العمل، فعمل على تحريض الإماء على الهروب من سادتهم أو يتربص لهن في الطريق ؛ فإذا ما مضت إحداهن لقضاء حاجة لمولاها ، يأخذها عنوة

---

[117] أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٩

[118] المالقى، في أدب الحسبة، ص ٦٥.

[119] ابن عبدون البغدادي، مصدر سابق، ص ٣٧٢، ٣٧٥.

[120] علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨،ص ١١.

[121] لغياب الاستقرار السياسي على الحدود الشمالية لدولة المماليك في بلاد الشام لكثرة تحركات القبائل التركية كلف الميزانية المملوكية الكثير لحماية هذه الحدود، ولسيطرة العثمانيين على جنوب أوربا وضرب بيزنطة تحكما في طرق التجارة بين جنوب روسيا والبحر الأسود من ناحية وشرق البحر المتوسط من ناحية أخرى وقيامهم باضطهاد جنوه مما جعلها عاجزة عن تقديم العدد الكافي من الرقيق من منطقة البحر الأسود لسلاطين المماليك، ورغبة العثمانيين في الحصول على حاجتهم من العسكر الانكشارية لتقوية جيوشهم كل ذلك حرم على المماليك مصدر كبير لجلب العبيد والجواري فاتجهوا إلى الجنوب – الحبشة – انظر نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٥، ٢٢٦ ؛ صبحي لبيب، سياسة مصر في عصري الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية ،عدد٢٨-٢٩، القاهرة ،١٩٨١-١٩٨٢، ص ١١٧، ١٤٦؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ١٩٣.

[122] السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٧١، ص ١٢٥

[123] نفس المصدر، جـ١٢ ، ص ٨٥.

[124] ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥ ،ص ١٧٤.

ويحبسها عنده حتى يصالحه مولاها على مال يدفعه إليه.[١٢٥]

معلوم أن السوق نافقة لمن لديه المال كما ذكر ابن خلدون[١٢٦]وكبار رجال الدولة المملوكية من أمراء المماليك والفقهاء والتجار هم الملأ من أهل الدولة، ومن ثم تسابق عدد كبير في اقتناء الجواري ومنهن الحبشيات، وجاز كل منهم من الجواري ما يتناسب مع مكانته الاجتماعية وثروته، [١٢٧] مثال السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١م)، حيث صل عدد جواريه إلى ألف ومائتي جارية [١٢٨] والسلطان الصالح صلاح الدين بن السلطان الناصر بن قلاوون الذي توفي عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م وله مائتا سرية ما بين بيض وحبش [١٢٩]، والسلطان الأشرف برسباي (٨١٤ هـ / ١٤١١م)الذي كان لديه أقل من مائتي جارية.[١٣٠]

عملت الجواري في بيوت سادتها واختلفت العلاقة بينهن وبين السادة، من الأمر والتنفيذ إلى الود والمحاباة، وهي على الصعيد النظري، كما حضت عليها الشريعة الإسلامية، تتسم بالعطف والحنو لما جاء من الحديث الشريف عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال كان أخر كلام رسول الله ﷺ " اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم " [١٣١] ويتغير وضع الجارية إذا ما اعتنقت الدين الإسلامي، وكثير ما تحولت الجاريات الحبشيات إلى الدين الإسلامي لما يجدونه من سماحة الإسلام وعدم تعصب المسلمين أو تقرباً من أسيادهن، فما أن حازت رضاه حتى يعقد عليها زواجاً شرعياً، وبموجبه تتحرر من الرق. هذا إلى جانب أن التحول للإسلام يعطى كل منهما الحق في أن يرث الآخر لأن الاختلاف في الدين يحرمها من إرث بعضهما. ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد يحتاج إلى إجراءات معقدة، وإنما يكفي أن تنطق الجارية بالشهادتين أمام أحد الشيوخ الذي ينص كتابة على ذلك، ليثبت إسلامها.[١٣٢] أما الجواري اللاتي يبقين في الرق فيحافظن ويحتفظن بعقيدتهن، فإن سادتهن يتساهلون معهن في إقامة شعائر دينهن ولا يكرههن على تغيير

---

[125] المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٦٤٢ – ٦٥٦.

[126] مقدمه ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٦٤.

[127] ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية،القاهرة، ١٩٧٠، جـ١، ص ٧٧.

[128] المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٥٣٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٣٧

[129] ابن إياس، مصنر سابق، جـ١، قسم ١، ص ٥٤٦.

[130] المقريزى، السلوك، جـ٤، قسم ٢، ص ١٠٤٣.

[131] أبى داوود، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٥،حديث رقم ٥١٥٦

[132] النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، جـ٩، ص ١٤٥.

عقيدتهن، بل يسمحوا لهن بالقيام بالطقوس في المواسم والأعياد.[١٣٣] .

وعاشت الجواري الحبشيات وغيرها في قصور السلاطين ودور الأمراء وعلية القوم وغيرهم ممن مكنتهم ظروفهم الاقتصادية ومكانتهم الاجتماعية جزءاً أساسياً من الحريم وإنهن ضمن أفراد عائلة أسيادهن، يشاركهن في شتى المناسبات الخاصة بعائلة السيد من أفراح وأحزان، ويطبق عليهن العزلة كما تطبق على بقية النساء من الأميرات اللاتي في الحريم.[١٣٤] ويؤكد ذلك ما طالعتنا به بعض المصادر المعاصرة من أن أحد رجال الدولة تزوج من أمة أو جارية حبشية مثل عمر بن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب (ت٩١٣هـ/١٥٠٧م)، [١٣٥] وكذلك آسية بنت الملك الناصر فرج بن برقوق، فكانت ابنة لجارية حبشية أسمها ثريا. [١٣٦] وعلى صعيد علية القوم وغيرهم الذين امتلكوا جواري حبشيات وتزوجوا منهن، تذكر المصادر المعاصرة أن أبي القسم سلامة تزوج من جوهرة الحبشية ،[١٣٧] وجوهر الكمالي تزوج من جوهرة الصغرى الحبشية الكمالية ،[١٣٨] وألحقت به ونسبت إليه كما يسفر عن ذلك اسمها، وأحمد بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم البسطيني الذي ولد عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧م من أم حبشية، [١٣٩] وكذلك كوكب الحبشية مستولدة السيد بركات بن حسن بن عجلان وأم ولده أبى سعيد المتوفى ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م،[١٤٠] وكذلك عبد العزيز بن الفخر أبى بكر بن على بن أبى البركات الذي ولد من أم حبشية تدعى غزال.[١٤١]

واقتنى الكثير من أفراد الطواشية أو الخصيان الجواري ولأن كثيرا منهم من الأحباش اعتبروا الجواري جزءً أساسياً من أسرهم وكن موضع ثقة هؤلاء الأمراء ويعرفون من أسرارهم الكثير.ويؤكد ذلك ما يرويه ابن إياس عام ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م بقوله " قبض على متقال الجمالي الطواشي الزمام وضرب ضرباً ... ووجدت له أوراق عند بعض جواريه " [١٤٢] وعملت بعض

---

[133] ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥، ص ٣٥٧، ٤٤٣.

[134] سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٣٥.

[135] ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٤، ص ١٢٨.

[136] نفس المصدر، جـ٢، ص ٣٦٢، ٣٦٣.

[137] السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص ١٨.

[138] نفسه.

[139] نفسه.

[140] السخاوي،الضوء اللامع، جـ١٢، ص ١٢٢.

[141] نفس المصدر، جـ ٤، ص ٢١٧.

[142] ابن إياس، مصدر سابق، قسم ١، جـ٢، ص ٢٤١.

الحبشيات دادة في قصور السلاطين لملاطفة أولاد السلطان وإدخال السرور عليهم بكثير من ضروب الألعاب المسلية مثل الدمى والعرائس.[١٤٣] ومن هؤلاء سر النديم،[١٤٤] ومعها عدة جواري لمساعدتها، التي كان لها دوراً بارزاً في إخفاء الملك العزيز يوسف بن برسباي في أواخر أيام دولته، عندما لاحقه عسكر السلطان جقمق.[١٤٥]

وحازت بعض الجواري اللاتي أجدن الغناء أو العزف إعجاب بعض السلاطين من الجواري المغاني فأقدموا على الزواج منهن بعد العتق ،ومثال ذلك أنفاق العوادة الجارية الحبشية حالكة السواد والتي بدأت حياتها جارية من جواري المغاني، إذ اشترتها ضامنة المغاني بالقاهرة من ضامنة المغاني بمدينة بلبيس بحوالي أربعمائة درهم، عندما رأت فيها استعداداً صوتياً يؤهلها للغناء، وعلمتها الضرب بالعود على يد الأساتذة عبده على وعيد على العجمي العواد، [١٤٦] فمهرت في العزف على العود، ناهيك عن كونها حسنة الصوت جيدة الغناء أحيت أنفاق ليلة طرب في بيت السلطان الناصر فاشتهرت، فشغف بها الصالح إسماعيل وهام بها حباً. والغالب على الظن أن جمال الخلقة والجسد لم يكونا وحدهما الحافز على ذلك العشق الذي حاق بأفراد هذه الأسرة وإنما غنائها وحلاوة صوتها وما اشتهرت به من جودة ضربها على العود،كل هذا كان السبب في تسابق ثلاثة أخوة من السلاطين على طلبها [١٤٧] فنالت حظوة الصالح إسماعيل فتزوج بها وولدت له ولداً فأختصها بنفيس الجواهر،[١٤٨] وبعد وفاة المالك الصالح (٧٤٣ – ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٥ م) باتت أنفاق عند أخيه المالك الكامل (٧٤٦ – ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ – ١٣٤٦ م) من أول ليلة لسلطنته لما كان في نفسه منها أيام أخيه[١٤٩]، وبعد مقتل الملك الكامل وتوليه

---

[143] ابن الإخوة، مصدر سابق، ص٨٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٤.

[144] ابن تغرى بردى، المنهل الصافي في المستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، جـ٤، ص٢٢٨ – ٢٩١، رغم سمار الدادة سر النديم إلا أنها على قدر من الجمال مما جعل الشاعر محمد بن حسن بن على النواجى ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م.يفتن بها فقال فيها شعراً،

أيا سر النديم ملكت رقى بحسن حال في الأحشا مقيم

وصنتك في الفؤاد ولا عجب فلست مضيعاً سر النديم

انظر السيوطى، أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد الغزالى، الكويت، ١٩٩٥، ص٧٣.

[145] ابن تغرى بردى، المنهل الصافي، جـ٤، ص٢٩١.

[146] المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٧١٥ ؛ لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في العصر المملوكي، سلسلة تاريخ المصريين، عدد ١٤١، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٤ – ٤٦.

[147] محمد قنديل البقلى، الطرب في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٤٤ – ٤٦.

[148] ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد، الدكن، ١٣٩٥هـ، جـ١، ص ٨٣ ؛ لطفي أحمد نصار، مرجع سابق، ص١٢٣-١٥٢.

[149] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ١٥٠.

أخيه المظفر حاجى سنة (٧٤٧ – ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ – ١٣٤٧ م) طلب أنفاق لنفسه فطلعت إلى القلعة بجواريها وتزوجها السلطان وفرش تحت أقدامها ستون شقة أطلس، ونثر عليها الذهب. ضربت أنفاق بعودها وغنت للسلطان الذي أنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات ثمنها أربعة آلاف دينار،[١٥٠] كما أعطاها أضعاف ما كان يعطيها أخوه وهام بها.[١٥١]

لم يكن ذلك كل دور الأحباش في مصر، وإنما كان لهم دوراً في الحياة الثقافية أشارت إليه المصادر المعاصرة.

دور الأحباش في الحياة الثقافية:

لم يُحرم الإسلام العبودية بنص قاطع وإنما حض على تحريم العبيد حتى أنه جعل عتق الرقاب كفارة لكثير من الذنوب وحض أيضاً على حسن معاملتهم وإطعامهم مما يطعم سيدهم مع مضاعفة أجرهم عند الله، وتخفيض عقوبتهم في الحدود إلى النصف. فتحت سماحة الإسلام الباب على مصراعيه لإسهام العبيد في الحياة الثقافية وحاز بعضهم السبق في مختلف العلوم، وأهلت بعضهم ثقافته للعمل مؤدب لأطفال السلاطين والأمراء وعلية القوم من الأثرياء، وحقق بعض هؤلاء الطواشية ثروات لم يبخل بها على إثراء الحياة الثقافية، فأسس مدرسة، وأنفق على بناءها من أمواله الخاصة لتعليم الطلاب، ومنهم أيضاً من اشتغل بعلوم الدين وتعمق فيها حتى ساهم في التصوف الإسلامي.

حرص السلاطين والأمراء والأثرياء على تعليم أبنائهم وتلقينهم العلم مع الخلق فتريثوا في اختيار معلم أبناءهم، وحرصوا على أن يتحلى بجانب علمه بصفات خاصة أهمها الإخلاص في العمل والإخلاص له والتمتع بالخلق القويم، لأن مؤدب الأطفال لعب على أسس الخلق وكان يقوم بدور بارز في العناية بأخلاقهم وأدبهم علاوة على قيامه بتعليمهم،[١٥٢] ومن هؤلاء ياقوت الحبشي الكمالي بن البارزى[١٥٣] الذي يتضح من اسمه أن سيده أعطاه اسمه حباً فيه لإخلاصه، ثم أخذته سيدة بنت الجمالي وجعلته ناظرها الخاص، فقام ياقوت الحبشي بتربية سيما الجمالي الذي تولى ناظر الجيش.و نجم عن هذه التربية الناجحة أن أوكل لياقوت الحبشي بتربية أغلب أبناء مولاه، الذي كافئه بتأدية فريضة الحج. ولأن لكل ناجح وشاة ففشوا عليه ثقة مولاه السلطان

---

[150] نفس المصدر، جـ١٠، ص ١٥٣ – ١٥٤؛ المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص٧٢١

[151] ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٨٤.

[152] خطاب عطية، التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٨٣.

[153] ياقوت الحبشي الكمالي بن البارزي ،اختص بخدمة مولاه وعندما توفي خدم ابنة سيده ببيت الجمالي ناظر الخاص فقام بتربية بنيها ،وحج ياقوت الحبشي وكان محبا للخير وله بر وفضل كثير ،توفي عام ٨٩٦هـ/١٤٩٠م،أنظر السخاوي ،الضو اللامع جـ١٠ص٢١٤.

الأشرف قايتباي فأهانه بالضرب ،فاجتاز ياقوت الحبشي المحنة وعاد إلى مولاه الجمالي الذي زادت ثقته فيه واستمر فى خدمة عائلته وتربية أبناءه إلى أن توفي عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م.[١٥٤]

ومنهم أيضاً مفلح الحبشي الذي عمل مؤدباً للأطفال، وزكاه لهذه المهنة كثرة تلاوته للقرآن [١٥٥] وإن كان مؤدب الأطفال يقوم بمهمته في بيوت السلاطين والأمراء والأثرياء فإن من بين الأحباش من شارك في الحياة العلمية من خلال كُتابهم الخاصة التي يحضر إليها الأطفال ليتعلموا القرآن ومن هؤلاء الشمس بن عبد الله الحبشي الذي قرأ القرآن عليه كثير من الطلاب مثل عبد الرحمن بن أبى بكر بن على الزين أبو الفرج.[١٥٦]

وقد وجد علماء أحباش اشتغلوا بالعلوم النقلية نظراً لكون هذه العلوم هي المحور الرئيسي الذي درت عليه حركة الدراسات العامة فسعى بعض الأحباش للاستزادة من هذه العلوم لكسب الدنيا، والتقرب إلى الله عملاً بالآية الكريمة التي تحض على طلب العلم وتعلمه للناس " وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " [١٥٧] لذلك ظهر بعض الأحباش في هذه العلوم وعلى رأسهم مفتاح الحبشي، مولى الموفق الأبي الذي رباه سيده وعلمه الكتابة والقراءة.[١٥٨]

ويعد ريحان الحبشي نموذج مشرف للعبيد الأحباش ما قدمه من إسهامات في الحياة الثقافية إذ تعلم على يد سيده القاضي على بن أحمد النويرى المالكي، وسمع من الكمالي بن حبيب بعضاً من مسند الطيالسى ومن أحمد بن سالم المؤذن قطعة من أول الموطأ ومن الجمالي الأميوطى قطعة من سيرة ابن سيد الناس. وعى ريحان ما تعلمه وتفقه حتى أمس من أعيان مذهب مالك وأخذ عنه فقهاء مثل التقى بن فهد وأولاده وعدوه ضمن معلميهم وذكروه في معجمهم. واستمر ريحان الحبشي في إثراء الحياة الثقافية إلى أن رحل للحج فمات بمكة عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م.[١٥٩]

ومن فقهاء الأحباش الذين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الثقافية سعيد بن عبد الله الحبشي عتيق الطواشي بشير الجمدار ،الذي بدأ حياته العلمية بأن علمه سيده القرآن واعتنى بتربيته ورتبه في الوظائف. واستمر سعيد بعد سيده على الدرب، وتزيا بزى الفقهاء واشتهر بحبه للسنة

---

[154] السخاوى،نفس المصدر، ج٧، ص ٢١٤.

[155] نفس المصدر، جـ١٠، ص ١٦٦.

[156] نفس المصدر والصفحة.

[157] سورة التوبة، أية، ١٢٢.

[158] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ١٦٦.

[159] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ٢٣٠، ٢٣١.

النبوية، وحج سعيد بن عبد الله الحبشي ستين حجة وتوفي عام ٨١٥ هـ / ١٤١٥ م [160]كما وجد علماء أحباش وثق فيهم الطلاب وقرءوا عليهم مثل حسن الحبشي الذي تلي عليه كثير من العلوم ومنهم إبراهيم بن علي بن أحمد بن يزيد.[161] وامتهن بعض الأحباش حرفاً شاركت في ازدهار الحياة الثقافية مثل مفتاح الحبشي الذي عاش على نسخ الكتب. تتلمذ في القراءة على يد أبى السعادات البقلي والطبناوي، كما أخذ عن السخاوي، وقد أثنوا على مفتاح الحبشي ولقبوه بصاحب العقل والحشمة.[162]

خضعت مكة والمدينة لنفوذ المماليك بوصفهم حماة الخليفة العباسي بمصر وحق للسلطان المملوكي إرسال من يتولى خدمة شؤون الحرمين الشريفين [163] فاختار السلاطين شيوخاً من الأحباش لتوليه شئون الحرم المكي والنبوي، مثل مثقال الحبشي الساقي الذي أرسل في ربيع الأول ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م ليتولى مشيخة الحرم النبوي الشريف، وقيل أن سبب اختيار مثقال لتوليه هذا المنصب التقرب إلى النبي ﷺ لعل مثقال يتوب عما يقوم به من أفعال الناس إلى جانب كثرة شربه.[164] ولم يقبل مثقال أول الأمر "وسعى في إبطاله " كما يذكر ابن الصيرفي، [165] ولكن مسعاه باءت بالفشل، إذ يؤكد ابن إياس على سفر مثقال إلى المدينة وتولى منصبه. ويبدو أن مثقال كان محبوباً من السلطان حتى يختاره لهذه المهمة أملاً في توبته ونجاته من العذاب. كما أنه كان محبوباً من الذين عايشوه وعاملوه من الناس ولا أدل على ذلك من قول الشاعر،

وأعجب له فرعاه الله من رجل فيه قناطير خير وهو مثقال [166]

ورغم أن ابن إياس يؤكد على أن مثقال تولى المشيخة فذلك بعيد الاحتمال ، لأن المشيخة أسمى منصب ديني في الحرم النبوي الشريف، وترجمة مثقال لا تدل على صلة له بالعلم

---

[160] نفس المصدر، جـ٣، ص ٢٤٨ ؛ ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر، جـ٢، ص ٥٢٨.

[161] السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص ٨٠.

[162] نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

[163] شؤون الحرمين :هي وظيفة إدارية مهمتها الإشراف علي ما يحدث داخل الحرم المكي والنبوي من بناء أو تعمير أو ترميم أو إصلاح بالإضافة إلي الإشراف علي أعمال جميع العاملين والموظفين بالمسجد الحرام .أنظر فاطمة محمد حسن المباركي ،الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة أم القرى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥مصـ١١٣. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٢٦ – ١٢٧ ؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، ١٩٨٥، ص ١٠٦.

[164] ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢٣.

[165] أبناء الهصر، ص ٢٥، ٢٦.

[166] ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢٣.

حتى يتولى المشيخة ناهيك أنه من العبيد الذين عملوا بالسقاية. ولعله تولى مشيخة الخدام كما ذكر ابن الصيرفي الذي نص على كونه تولى مثقال المشيخة،[١٦٧] يؤكد ذلك أن من تولى هذا المنصب كان من الخدام.[١٦٨]

وقد تولى على رئاسة مشيخة الحرم النبوي عدد من الأحباش بعد مثقال الحبشي، فقد تولى هذه الرئاسة سرور بن عبد الله الخادم الطواشي الحبشي الذي عرف عنه حسن الخلق والثقة، مما حدا بالسلطان الأشرف قايتباي أن يتركه في هذا المنصب طويلاً، وظل به حتى توفي ودفن بالحرم النبوي [١٦٩] فقام السلطان الأشرف قايتباي بتعيين مرجان التقوى الحبشي فى مشيخة الخدام بالمدينة المشرفة [١٧٠] وذلك لحرص سلاطين المماليك على عدم ترك الحرمين الشريفين دون مشرف من قبلهم، لأهمية هذه الأماكن المقدسة-وما تضفيه على حكمهم من صفة المشروعية. جني بعض الأحباش الطواشية ثروات كبيرة من خدمة السلاطين والأمراء،ولم يبخل بعضهم بماله عن المشاركة في إثراء الحياة العلمية، فأنشئوا مدارس وأوقفوها على خدمة العلم مثل صفي الدين جوهر ابن عبد الله المنجكى الحبشي الذي تولى نيابة مقدم المماليك السلطانية في عهد الظاهر جقمق [١٧١] وتكسب من منصبه مالاً كثيراً، إذ قام بتوزيع المرتبات على الجند وكسوتهم في عصر أتسم بالاضطراب،[١٧٢] ومما احتجز لنفسه من أموال قام ببناء مدرسة خاصة بسويقة منعم [١٧٣] الواقعة بعطفة جواهر المتفرعة من شارع الصليبية،[١٧٤] وأوقف عليها الأوقاف،[١٧٥] ودرست بها الفرائض [١٧٦]ولم يكتف بهذا القدر من المساهمة وإنما شيد مسجد ، أقيمت به صلاة الجمعة عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م.[١٧٧]

وكثر عدد الأحباش في مصر المملوكية،ومن ثم اختصوا أنفسهم بزاوية سميت زاوية الخدام خارج باب النصر بين باب الفتوح من الحسينية، وبين شقة الحسينية وهى الزاوية التي أمر

---

[167] أبناء الهصر، ص ٢٥.

[168] نفس المصدر، ص ٦٤.

[169] بن الصيرفي، أبناء الهصر، ص ٦٤، ٨٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٤٦.

[170] ابن إياس، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣١.

[171] ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠،ج١، ص ١١٨.

[172] القلقشندى، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٦؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

[173] ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ١١٨؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٢٤.

[174] على مبارك، الخطط التوفيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٢، ج٢، ص ١١٥ – ١١٦.

[175] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٥٢٤.

[176] على مبارك، مصدر سابق، ج٢، ص ١١٦.

[177] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٣٤٨ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٤٦.

ببنائها وتحمل نفقتها بلال القراجي وأوقفها على الخدام الأحباش عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م.[١٧٨]

الأحباش و الحياة الدينية:

اهتم المماليك بالتصوف والمتصوفة اهتماماً خاصاً وأرجع البعض هذا الاهتمام إلى ما تعرضت له مصر من اضطرابات بسبب الحروب الصليبية، وما نزل بها من بلاء وفوضى نتيجة الحروب التي اندلعت بين حكامها المماليك مع بعضهم البعض؛[١٧٩] إذ أدى ذلك إلى تطلع المصريين إلى ملاذ يدفنون فيه كربهم، باتخاذ لون من ألوان الحياة الروحية عسى أن تخفف عنهم المحن وتكشف البلاء، فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية الذين كثرت أعدادهم وأصبح لكل شيخ طريقة وله مريدون، واختلفت شعائر الطرق الصوفية واعترفت الدولة المملوكية بنظم الطرق الصوفية وشجعت على الانخراط بها، وأحاطت شيوخها بالعناية.[١٨٠] وتجدر الإشارة إلى ما اعترى هذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية من تطور خلال هذه الفترة حيث تعود مفاهيمه إلى ما عرف بالتصوف السني بنوعيه (الفقهي والدراويشى) والتصوف الفلسفي [١٨١].

انخرط بعض الأحباش الذين ولجوا هذا المجال السني بعد أن بات قطباً من أقطاب المتصوفة وهو القطب ياقوت الحبشي ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م خليفة أبى العباس المرسى في مشيخة الطريقة والذي أثر في الفقيه الشافعي شمس الدين بن اللبان. ضبطت على ابن اللبان كلمات عن طريق الاتحادية وألف كتاباً على لسان الصوفية وفيه إشارات أهل الوحدة وكان له شطحاته حين أعلن أن أحد دروسه بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط " إن السجود للصنم غير محرم " وأن شيخه ياقوت الحبشي يفضل بعض الصحابة كاد ذلك يؤدى به إلى التعذيب لولا شفاعة بعض كبار موظفي الدولة ابن فضل الله كاتب السر ولكنه منع من إلقاء دروسه،[١٨٢] تلك هي مكانة ياقوت الحبشي عند بعض تلاميذه، أما مكانته عند شيخه أبى العباس المرسىْ فيذكر

---

[178] المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٤٣٢.

[179] إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٦٠، ٢٦١.

[180] محمد كامل حسين، بين التشيع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٦ ديسمبر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٥٨، ٥٩.

[181] يقصد بالتصوف السني الذي تفيد أصحابه فيه بالكتاب والسنة وقد يجمع المتصوف من هذا النوع بين التصوف والمامه بالفقه فيسمى متصوفاً فقيهاً وقد يكتفي بتلقي خرقة التصوف وحظه من الأوراد والأذكار عن شيخه فيسمى درويشاً، انظر عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٣٢، ١٣٣ ؛ توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م جـ١، ص ٤٧، ٤٨.

[182] المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٤٠٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٤٢١، ٤٢١ ؛ ابن إياس، مصدر سابق، جـ١، قسم ١، ص ٤٦٢، جـ١، قسم ٢، ص ١٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ٥٠.

الإمام الشعراني في طبقاته ما يبين بأن أبا العباس المرسى قام بعمل عصيدة احتفالاً بيـــوم مولـــد ياقوت الحبشي، وأطلق عليه اسم العرش ؛ لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش وما في الأرض إلا جسده وقيل لأنه كان يسمع أذان حملة العرش وكـــان (رضـــي الله عنـــه) يـــشفع حتـــى فـــي الحيوانات،[١٨٣] وليس بغريب أن يترك من له مكانة ياقوت الحبشي تلاميذاً مثل ولى الدين محمـــد بن أحمد بن إبراهيم الحلوى الدبياجى.[١٨٤]

كما اشتهر بعض الأحباش مثل أبو بكر الزين ويعرف بالحبيشى، الذي كان من أصحاب البلالى والصوفي أبا بكر الحبيشى المجذوب (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م)[١٨٥]ومفلح الحبشي الـــذي كان كثير التلاوة، واستقر به المقام في الزاوية الباسطية وتوفي عـــام ٨٤٤ هـــ / ١٤٤٠ م،[١٨٦] ومقبل الحبشي أحمد صوفية زاوية سعيد السعداء استغل إقامته في هذه الزاوية وكتب كتاب القول بالبديع وغيره من كتب العلم .[١٨٧]

أما عن الأحباش المسيحية في مصر فمن المعروف أن الرهبنة الحبشية نشأت على أيدي الرهبان الأقباط حسب قوانين القديس أنطونيـــوس[١٨٨] القـــديس مقـــار[١٨٩] والقـــديس بـــاخوم[١٩٠]،

---

183 الشعرانى، الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، جـــ٢، د.ت، ص ١٨- ١٩.

184 ابن إياس، مصدر سابق، جـــ١، قسم ٢، ص ١١٦.

185 السخاوي، الضوء اللامع، جـــ ١٢، ص ٩٩.

186 نفس المصدر، ج٥، ص ١٦، ١٧ ؛ ج١٠، ص ١٦٦، ١٦٧.

187 نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٨.

188 القديس أنطونيوس ،ولد من أسرة غنية في صعيد مصر ،ولما توفي والده ترك ثروة ضخمة ولكنه وزعها وسكن الصحراء واستمر حوالي عشرون سنة لا يري وجه إنسان وهو في نسك وصوم ، ولما أشتهر أمرة اجتمع حولـــه كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلي المعيشة المثلى . وقد تتلمذ علي يديه كثيرون منهم الأنبا مقـــاريوس مؤســـس الرهبنة في وادي النطرون، وارتحل أنطونيوس إلي الإسكندرية ليحذر الناس من هرطقة أريوس عام ٣٥٦م .أنظر مجموعة مؤلفين ،تاريخ الحضارة المصرية العصر اليوناني والروماني والعصر الإســـلامي ،القـــاهرة ص ٣٠٦- ٣٠٧.

189 القديس مقار،ولد عام ٣٠٠م من أبوين مصريين في إحدى قري مديرية المنوفية وكان أبوه كاهنا ،وقد رسم مقار قسا ،وبعد وفاة والده وزع أمواله وذهب ألي وادي النطرون عام ٣٣٠م وزار الأنبا أنطونيـــوس وألبـــسه الـــزى الرهباني وزوده بنصائح ورجع إلي وادي النطرون وتفرغ للعبادة والتأمل وعاش لوحده حوالي ستين سنة في هذا الوادي إلي أن تجمع حوله الناس فبني لهم كنيستين ،وفي عام ٣٩٠م توفي .أنظر مجموعة مؤلفين ، مرجع ســـابق ص ٣٠٧.

190 القديس باخوميوس ، ولد عام ٢٩٠م في إحدي قري صعيد مصر من أبوين وثنيين والتحق فـــي شـــبابه بجـــيش الإمبراطور قسطنطين في حربه ضد مكسيميانوس ،وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي مدينة إسنا فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب فسأل باخوميوس عما حدا بهؤلاء الناس إلي إبداء هذا العطـــف فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم فقال في نفسه إن عدت سالما سأصير مسيحيا، ولما أنتصر قـــسطنطين

وازدهرت الأديرة الحبشية في القرنين السادس والسابع الميلاديين وأخذ الرهبان يتفرغون لدراسة أدب الرهبنة وتفهمه نتيجة ما ترجم من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط في مصر،[١٩١] ومن هنا بدأت رحلة الأحباش إلى مصر للاستفادة من فيضها الدافق عن طريق البحر والبر واستقر بعضهم في أديرة خاصة بهم والآخرين أقاموا مع إخوانهم الرهبان الأقباط بأديرتهم.

ولا جدال في تفوق مصر في مجالات العلم إبان تلك الفترة، حيث مدرسة الإسكندرية هذه كانت في العصر البيزنطي والذي انتهى في مصر بدخول العرب إليها ٦٤٠ــ٦٤١م. قصدها الرهبان الأحباش الذين تنقلوا بين أديرتها ينهلون منها، ومن ثم استقرت جماعات صغيرة من الرهبان الأحباش في بعض الأديرة المصرية لتأخذ من علومها اللاهوتية والروحية تلك التي كان نصيبهم منها في الحبشة متواضعاً ومن تلك الأديرة التي استقر فيها الرهبان الأحباش مع إخوانهم الرهبان المصريين، دير الأنبا شنودة في سوهاج، ودير الأنبا صموئيل بجبل القلمون في صحراء الفيوم، وبعض أديرة بحارة زويلة (في مكان مستقل عن أديرة الراهبات) وكذلك أديرة البحر الأحمر، وأديرة وادي النطرون ولا سيما دير القديس أنبا مقار[١٩٢] كما استقر رهبان أحباش في دير القديس أنطونيوس[١٩٣] ولم يقف الرهبان الأحباش عند حد مشاركة الرهبان المصريين في أديرتهم، وإنما اختصوا أنفسهم بأديرة كانت خاصة بهم وخاصة لهم، وأوردت المصادر الإسلامية والقبطية بعضاً منها

دير أبى يحنس القصير[١٩٤]: ويقع جنوب غربي دير أبى مقار وعلى بعد خمسة عشر كيلو متراً

وسرح الجيش عكف باخوميوس علي دراسة المسيحية وأعتنقها حتى صار أبا وأسس أديرة وأستخدم في تدبيره ما اعتاده من نظام عسكري وكثر عددالمنضمين إليه من يونان ورومان وأحباش وسريان حتى وصل عدد الرهبان تسعة ألاف .أنظر مجموعة مؤلفين ، مرجع سابق صـ٣٠٨-٣٠٩؛ ملوك ميخائيل، باخوميوس، رسالة مارمينا الرابعة، مطبوعات جمعية مارمينا العجائبى، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٩ – ٤٨ ؛ رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة الديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم، مكتبة المحبة، القاهرة، ص١٥٦، تامرات، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

[191] مراد كامل، الرهبنة في الحبشة، مقال ضمن رسالة مارمينا خاصة بالرهبنة القبطية، الإسكندرية ، ٢٠٠١، ص ٥٤.

[192] الرهبنة الحبشية، إعداد راهب من دير البراموس، القاهرة ،١٩٩٩، ص ١٥٨.

[193] زاهر رياض، الإسلام في أثوبيا، ص ١٣٥.

[194] يذكر المقريزى أن هذا الدير خاص بأبى يخنس، انظر الخطط ص ٥٠٩، ويذكر في السنكسار أن اسم الدير يحنس وهذا هو الأرجح، انظر السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، مكتبة المحبة، القاهرة ،١٩٧٩، ج١، ص ٢٢٣.

تقريباً منه ويرجع تاريخ إنشاء هذا الدير إلى القرن الأول الميلادي،[١٩٥] وكان الأنبا دميان الخامس والثلاثون ٥٦٩ – ٦٠٥م من عدد بطاركة الإسكندرية، والأنبا خايل الثالث والخمسون ٨٤٩ – ٨٥١م من عدد رهبانه،[١٩٦] ذكر المقريزي هذا الدير وقال " وكان لهذا الدير حالات شهرية وبه طوائف من الرهبان ولم يبق به الآن ثلاثة رهبان،[١٩٧] مما يدل على اضمحلال أمره في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ولقربه إلى دير الأنبا مقار زاره الأباء البطاركة وهم في طريقهم إلى دير الأنبا مقار لتكريس الميرون ،[١٩٨] وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كان جماعة من رهبان الحبش ... يسكنون فيه وبجواره، وكان جسد أبى يحنس القصير بكنيسة هذا الدير،[١٩٩] وقد بقى هذا الدير قائماً حتى أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ثم خرب فنقل جسد القديس أبى يحنس إلى دير أبى مينا بمصر،[٢٠٠] وكان بجوار الدير عدة قلالى [٢٠١] سكنها رهبان أحباش من أشهرها قلاية بهوت.[٢٠٢]

دير أبى يخنس كاما (القس): فقد تأسس هذا الدير في القرن الثامن أو التاسع الميلاديين إذ لا يعرف في أى القرنين عاش أبو يخنس كاما، وبقى هذا الدير قائماً حتى النصف الثاني من القرن

---

[195] أبو المكارم، الكنائس والأديرة، إعداد الأنبا صموئيل، القاهرة، ٢٠٠٠، ج٤، ص ٣٩- ٩٨؛ السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٣؛ منسي القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٠٩.

[196] يعقوب مويزر، تاريخ مجيد أنطوى وأثار رهينة أنمحت، رسالة مارمينا الخاصة بالرهبنة، ص ١٤٠.

[197] أبو المكارم، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٩ – ٩٨؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٥٠٨.

[198] عبد المسيح صليب المسعودي، تحفة السائلين في ذكر أديرة رهبان المصريين، القاهرة ١٩٣٢، ص ١٣٧. والميرون، هو زيت المسحة المقدس، ويروى في تاريخ الكنيسة القبطية أنه عقب قيامة السيد المسيح أخذ الرسل الحانوط والأطباب التي استعملت في دفنه وأضافوا إليها زيت الزيتون النقي واستعملوه لمسح المتعمدين، ولما نفذ ما بقى منه في عصر أثناسيوس الرسول في القرن الرابع اقترح علي رؤساء الكنائس في العالم أن يجتمعوا ويجددوا كل ما يلزم باستعمال ما بقى كخميرة يضاف إليها زيت الزيتون وبعض الأطباب والعطور واستمر على هذه العادة إلى يومنا هذا. انظر رسالة مارمينا الرابعة مقال ابن كبر هاشم، ص ٢٧٢.

[199] المسعودي، تحفة السائلين، ص ١٣٧.

[200] السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٨٧.

[201] القلاية، أشبة بحجرة صغيرة يعيش فيها الراهب طوال حياته والقلاية مستطلية الشكل مغطاة بأقبية نصف دائرية قليلة الارتفاع وبها فتحات صغيرة بمثابة نوافذ على شكل فتحات السهام والقلاية مزودة بالأثاث الضروري ومرتبة ملقاة على حصير فوقها غطاء، انظر لبيب حبشي، ذكى تاوضروس، في صحراء العرب والأديرة الشرقية، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٩٣، ص ٩٩-١٠٠؛ مصطفي عبد الله شيحة، دراسات في العمارة والفنون القبطية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٢، ٢٥٦، وملابس الرهبان في القلاية عبارة عن قميص بدون أكمام وحفاة الأقدام، انظر حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبنة والديرية المصرية، القاهرة، د.ت، ص ١٤٤.

[202] المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي،[٢٠٣] ثم اندثر بعد مدة قصيرة، وكان يقع بالقرب منه دير أبى يحنس القصير وكان يقع أيضاً إلى جواره دير مار إلياس أو دير الحبشة، ولما تهدم دير إلياس انتقل إليه بعض الرهبان الأحباش والأرمن وسكنوا فيه ؛ وينم عن ذلك وصف عمل الميرون الذي قام به الأنبا غبريال الرابع وهو السادس والثمانون من عدد البطاركة الإسكندرية (١٣٧٠ – ١٣٧٨ م) في ٩ برمودة ١٠٩٠ س (١٣٧٤ م) في دير أبى مقار.[٢٠٤]

دير إلياس: سمى هذا الدير أيضاً دير الحبشة أو دير الحبش لان رهباناً أحباشاً سكنوه وحدهم، وكان هذا الدير بجوار دير أبى يحنس القصير ودير الأرمن، ويبدو أنه أسس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وظل عامراً بالرهبان الأحباش لمدة تراوحت بين قرنين أو ثلاثة قرون،[٢٠٥] وذكره المقريزي في خططه فقال " وقدر خرب يحنس كما خرب دير إلياس أكلت الأرضية أخشابها فسقطا وصار الحبشة إلى دير سيده أبو يحنس القصير، والدير لا بقايا له في أواخر العصر المملوكى .[٢٠٦]

دير سيده بو يحنس: أقيم هذا الدير بجوار دير أبى يحنس القصير ودير إلياس وهو على اسم العذراء مريم وكان ديراً صغيراً مقارنة بالأديرة الأخرى في برية وادي هبيب، وهو وادي النطرون[٢٠٧] مثل دير أنبا بيشوى السريان ولم يعرف زمن تأسيسه أو متى نزل به الخراب وهجره رهبانه[٢٠٨] بيد أن رهباناً أحباشاً انتقلوا إليه في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أو في أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادى وكان هؤلاء الرهبان يسكنون قبل ذلك في الدير الخاص بهم والمعروف بدير إلياس أو دير الحبشة، ويؤكد على ذلك المقريزي بقوله " دير سيده بو يخنس القصير وهو دير لطيف بجوار دير بو يخنس القصير ".[٢٠٩]

كنيسة القديس تكلا هيما نوت الحبشي: أقيمت هذه الكنيسة فوق سطح كنيسة العذراء الأثرية – بدير المحرق – وكان يصلى بها الرهبان الأثيوبيون متى أرادوا بلغتهم الأثيوبية ولذلك سميت بكنيسة الحبش أو الأحباش، وقد هدمت هذه الكنيسة عام ١٩٣٦م عندما خشى على كنيسة العذراء

---

[203] السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٣؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

[204] المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٨.

[205] أبو المكارم، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٩ ؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٣؛ عمر طوسون، وادي النطرون، مكتبة مدبولى، القاهرة؛ ١٩٩٣، ص ٨٧ – ٩٠.

[206] الخطط، ج٢، ص ٥٠٩.

[207] المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٨.

[208] نفس المصدر، ج٢، ص ٥٠٩؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨؛ عمر طوسون، مرجع سابق، ص ٩٠.

[209] المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٩.

الأثرية أن تتأثر مبانيها لقدم عهدها بوجود كنيسة أخرى فوقها.[٢١٠]

ويرجع اهتمام الرهبان الأحباش بإقامة كنيسة بدير المحرق لارتباط الدير بالسيد المسيح وأمه مريم وكانت إقامتهم بهذا الدير تستغرق أطول فترة من رحلتهم بأرض مصر، واعتقد هؤلاء الرهبان الأحباش أن مغارة السيد المسيح وأمه مريم هي هيكل الدير ورأوا أن قدسية الدير هي نفس قدسية الأرض المقدسة (فلسطين) ومن ثم حرص القادمون منهم لزيارة الأرض المقدسة على المرور بدير المحرق لينالوا بركة الرب وبركة الكنيسة وبركة العذراء مريم وبركة جبل قسقام الذي يوازى جبل الزيتون، وعدوا زيارة الدير متممة لواجبات زيارة الأراضي المقدسة[٢١١] لذلك كان معظم المطارنة الذين يرسلون إلى كنيسة الحبشة يختارون من بين رهبان القبط بدير المحرق،[٢١٢]وتتضح قدسية هذا الدير بجلاء فيما فعلته الملكة منتواب، إمبراطورة أثيوبيا، أثناء زيارتها له، إذ حرصت على أن تأخذ أكياساً مملوءة من تراب الدير إلى إقليم غواندار بأثيوبيا، حيث مزجت هذا التراب بمواد البناء لإقامة كنيسة هناك سميت بكنيسة جبل قسقام، كما أمرت بصوم أربعين يوماً عرفت حتى يومنا هذا بصوم قسقام يبدأ من ٢٦ توت (٦ أو ٧ من أكتوبر) وينتهي بصباح اليوم السادس من هاتور (١٥ أو ١٦ نوفمبر) وهو عيد تدشين كنيسة العذراء الأثرية بدير المحرق.[٢١٣]

ومن الصعوبة على الباحث رصد حياة الرهبان الأحباش داخل الأديرة والكنائس منفصلة علن حياة الرهبان المصريين بسبب انعدام الوثائق والمصادر التي تعالج هذا الجانب، إلا من خلال التاريخ والوثائق القبطية مع إشارات متفرقة من خلال سيرة القديسين ومن ثم يمكن القول أن تاريخ الرهبنة الحبشية في مصر مصدرها تاريخ الرهبنة المصرية التي أسست الرهبنة الحبشية[٢١٤] فعاش الرهبان الأحباش حياتهم داخل الأديرة على النظام الباخومى.[٢١٥]

وجدير بالذكر أن الرهبان الأحباش كانوا يقيمون برحلات لزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين عن طريق مصر ،حيث كانت تخرج القافلة بأعداد كبيرة يصل عددهم ثماني مائة

---

[210] الأنبا غرغريوس، الدير المحرق، تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، ص ١٢٨؛ رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم، مكتبة المحبة، القاهرة، ص١٥٦؛ القمس ميخائيل، تادروس السريانى، الأديرة المصرية العامرة، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠٦.

[211] غرغريوس، دير المحرق، ص ١١٧، ٣٩٤، ٤٠١، ٤٩٥.

[212] نفس المرجع، ص ٣٩٧.

[213] غرغريوس، دير المحرق، ص ٣١٥.

[214] الرهبنة الحبشية، ص ٤٠.

[215] نفس المرجع، ص ٦١.

فرد[٢١٦] مرافقة لقافلة تجارية ليتمتعوا بحماية القافلة التي يصاحبها حراس كما يصطحب الراهب الحبشي كتبه الشخصية والملابس التي لا يمكن الاستغناء عنها وهى ثلاث قمصان وعمامة وطاقيتين وشالين،[٢١٧] والكهنة بمعاطف سوداء وعمائم بيضاء وأغلبهم ممسكاً بصليب خشبي أو فضي أو من حديد، كما كانوا يحملون البسيط من المتعلقات والماء وثلاثة مذابح مكسوة بقماش مطرز جميل لإقامة القداسات أثناء السفر الطويل.[٢١٨] وكانت القافلة تخرج من إقليم تيجرى عقب عيد الغطاس ١١ طوبة (١٩ يناير) وتحمل معها رسائل وهدايا ثمينة يبعث بها ملك الحبشة إلى كل من سلطان مصر،و بطريرك الإسكندرية، فتسير القافلة عبر سواكن إلى دير تدجران ومن هذا المكان تعرج القافلة غرباً لتعبر الصحراء حتى تصل إلى النيل[٢١٩]عند النوبة ،و تواصل القافلة سيرها عبر مجرى نهر النيل مروراً بدير المحرق بصفته عندهم أقدس المزارات في مصر.

وتنطلق القافلة بعد ذلك لزيارة دير القديس مار جرجس ببا[٢٢٠] قبل أن يعبروا على وادي عربة لزيارة دير مار أنطونيوس بالصحراء الشرقية، على مسيرة أربعة أيام على شاطئ النيل تجاه مدينة بنى سويف الحالية،[٢٢١] ثم تواصل القافلة سيرها إلى القاهرة بمحاذاة منطقة الأهرامات من جهة اليمين مروراً بمنطقة حصن بابليون المتاخم للكنائس والآثار القبطية،[٢٢٢]حيث يقيم بعض الرهبان الأحباش بكنيسة مار جرجس،[٢٢٣] يزور رهبان القافلة عند وصولهم إلى مدينة الفسطاط بيعة قزمان ودميان ثم كنيسة بربره الأكثر شهرة في العصر المملوكي، وخارج مدينة الفسطاط يذهب الرهبان الأحباش لزيارة بئر مريم والشجرة المعجزة بالمطرية حيث استراحت تحتها

---

[216] ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تحقيق محمد مصطفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤، قسم ٢، ص ٥، وفي ابن إياس، مصدر سابق جـ ٥، ص ١١ عددهم نحو ستمائة إنسان.

[217] الرهبنة الحبشية، ص ١٥٩.

[218] نفس المرجع، ص ١٥٦- ١٥٧.

[219] سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢١- ٢٢.

[220] ببا، مدينة بمصر من جهة الصعيد على غربي النيل من كورة البهنسى، وقيل أن اسمها قبطي، انظر ياقوت الحموى، مصدر سابق، ج٨، ص ٣٣٣؛ ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٦٣؛ محمد رمزي، القاموس الجغرافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ج٣، ص ١٣٧.

[221] صموائيل تادروس، الأديرة المصرية العامرة، ص ١٣.

[222] الرهبنة الحبشية، ص ١٥٥.

[223] نفس المرجع ، ص ١٥٨.

العائلة المقدسة، ثم تعرج القافلة على القاهرة لمقابلة السلطان،[٢٢٤] فما أن تلتقي به حتى يقدموا لـــه الخطاب والهدايا التي كانت مضرب المثل من الكثرة، ويستقبلهم السلطان جالـــساً ... ثـــم يـــأمر بإكرامهم وإنزالهم منزل الضيافة الذي يقع بجوار السرادق عند جسر الأسود مع مواصلة خدمتهم وحراستهم. وبعد ثلاثة أيام ترحل القافلة إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة.[٢٢٥] ومع مندوب القافلـــة رسالة إلى القسيس الذي يعمل القربان فحواها " السلام عليكم يا رهبان الحبوش، الـــذين صـــبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام وصبرتم على الحر والبرد وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديبـــاج ومائة شمعة [٢٢٦] وثيابي وهو زناري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان ما هو كـــل يوم إلا من يوم العيد إلى يوم العيد لا يلبسه إلا القسيس الذي يعمل القربان فعرفوني بوصله ".[٢٢٧] كان ملك الحبشة يطلب السلطان المنصور قلاوون وأتباعه على القدس التوسط لدى اللاتينـــي [٢٢٨] ليكفوا عن مضايقة الفرنجة بالشام للأحباش أثناء المرور إلى هيكلهم لكنيسة القيامة.[٢٢٩]

وكان بعض الرهبان الأحباش يرفضون العودة إلى ديارهم، ويحرصون على الإقامة في القدس، إذ أقام بعضهم في كنيسة القديس سبليكر منذ القرن الرابع عشر الميلادي ،كما اســـتقروا تحت السلم المؤدى لمكان الصليب حيث يوجد هيكل القديسة مريم ،[٢٣٠] وفي القرن الخامس عشر

---

[224] بن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٣٤٦ ؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٧ ؛ ابـــن إيـــاس، مـــصدر السابق، ج٥، ص ١١- ١٢.

[225] ابن تغرى بردى، حوادث الدهورجـــ١ ص١١٨ ؛ابن طولون، مفاكهة الخلان، قسم ٢، ص٥ ؛ابن إياس، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٧٩، ج٣، ص ١٧٩، ج٥، ص ١١، ١٢.

[226] كان القبط الذين يصرفون الشمع والزيت للرهبان الأحباش لكونهم مقيمون معهم في الأديـــرة الخاصـــة بـــالقبط بالقدس ولكونهم خاضعين للكنيسة المرقصية، انظر دميترى رزق، قصة الأقباط في الأرض المقدسة، القاهرة، ص ١٧، ١١٨، ١١٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٣٧.

Budge, E.A.W. , *A history of Ethiopian Nubia and Abyssinia*, London, 1907 , pp. 286 - 287.

[227] ابن عبد الظاهرة، تشريف الأيام، ص ١٧٣ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص٢٥ Ibid, p. 28.

[228] كان اللاتين في ذلك الوقت (٦٨٩هـــ / ١٢٩٠م) قد استعادوا نفوذهم بعد ما عقد السلطان المنصور قلاوون مع الفرنج في عكا هدنة مدتها سنتين و عشرة أشهر ويبدو أنهم كانوا يضايقون الأحباش عند دخول هيكلهم الكـــائن تحت المذبح المحتوى على عمود الجلد، انظر ديمترى رزق، مرجع سابق، ص ١١٩، هامش ٢٢.

[229] ديمترى رزق، مرجع سابق، ص ١١٩ ؛ جوزيف كي زيربو، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

[230] تحتل القديسة مريم مكانة خاصة لدى الأحباش إذ يصورونها في كتاب كبرانجشت على أنها صورة لؤلؤة تنتقـــل من أجساد القديسين إلى الأبكار من أولادهم، فتخرج من شيش أبناء آدم إلى إبراهيم ومنـــه تنتقـــل إلـــى بكـــره إسماعيل ... ثم إلى سليمان ثم منليك بكره الطاهرة المقدس وشعبه الأطهار، انظر كبرانجشت (جلال الملوك) نصوص حبشية قديمة، ترجمة مجدي عبد الرازق سليمان مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافـــة، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢١ ؛وعن القديسة مريم ومكانتها عند المسحيين أنظر،طـــارق منـــصور،مقطـــوف الفكـــر البيزنطي، ج١،الأدب،القاهرة،٢٠٠٢،ص٦٤،٦٥.

الميلادي احتلوا جزءً من كنيسة العذراء في بستان جثيماني وقبل عام ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م واشتركوا في احتفالات الجمعة الكبيرة بمقاطع لحنية تتضمن توبيخ السيد المسيح لليهود حينما توج بإكليل الشوك، وقد صار هذا المكان ضمن الأماكن التي يشار على الحجاج الأحباش زيارتها كذلك يقال أن بعض الأحباش كانوا قائمين على مغارة النبي داود.[٢٣١]

وقد ترك هؤلاء الرهبان الأحباش تراثاً ثقافياً متأثراً بالثقافة القبطية فقاموا بترجمة عدداً كبيراً من الكتب الدينية اليونانية أو القبطية أوْ العربية إلى اللغة الجعزية حتى يتمكن أهل الحبشة ورجال الدين من الإلمام بها [٢٣٢]وشارك في هذه الترجمة رهباناً أحدهم يعرف القبطية والعربية والآخر من الأحباش يعرف العربية والجعزية، فكان الراهب المصري يقرأ النص القبطى وينقله شفاهه إلى الراهب الحبشي بالعربية الذي ينقله بدوره إلى اللغة الجعزية. [٢٣٣]وكان يحمل الحجاج الأحباش الكتب المترجمة إلى الحبشة علاوة على ما كان يحمله المطران المصري إلى الحبشة من كتب لمزيد من الثقافة أو لترجمتها إلى اللغة الجعزية مثلما فعل الأنبا سلامه [٢٣٤]وقد نشطت حركة الترجمة في عهد الإمبراطور رزء يعقوب (١٤٣١ – ١٤٦٨ م) وترجمت من العربية عجائب العذراء ثم عجائب العذراء ويسوع وفي عصر الملك لينا دنجل (١٥٠٦ – ١٥٥٤ م) نقل كتاب المكين جرجس بن العميد إلياس المعروف بابن العميد إلى الأثيوبية.[٢٣٥]

ولا أدل على هذا الجهد الذي قام به الرهبان الأحباش في مجال ترجمة الكتب اللاهوتية من اللغة القبطية والعربية إلى اللغة الحبشية من وجود تسع مخطوطات باللغة الحبشية في دير سانت كاترين.[٢٣٦]وقد ساعد الرهبان الأحباشْ على الترجمة إقامتهم في القلاية متفرغين للعبادة.[٢٣٧]ولا شك في أن ترجمة كتب اللاهوت إلى اللغة الحبشية ساهمت في ترسيخ المسيحية في بلادهم ومحاربة بقايا الديانة السبائية واليهودية.[٢٣٨]وقد أفضت زيادة الكتب المترجمة إلى قيام

---

231 سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء، ص ٣٨ ؛ Trmingham, Op. cit., pp. 65-66.

232 زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٠٠.

233 نفس المرجع، ص ١٠٤، واللغة الجعزية هي لغة الكنيسة الحبشية ولم تعد لغة الناس لحلول اللغة الأمهرية مكانها منذ القرن الثالث عشر الميلادي، انظر جلال الملوك، نصوص حبشية قديمة، ص ١٤ Ibid., p. 73.

234 زاهر رياض، مصر وإفريقيا، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣، ص ٨٩، ٩٠ ؛ كنيسة الإسكندرية، ص ١٠٥.

235 زاهر رياض، مصر وإفريقيا، ص ٩٠.

236 صموائيل تادروس، الأديرة المصرية العامرة، ص ٢٥٤.

237 غرغريوس، دير المحرق، ص ٣٢١.

238 راشد البراوى، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤١؛ زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية، ص ٨٦.

البابا يوساب بفتح مدرسة في البطريركية لتعليم الشبان قواعد الدين المسيحي، وإرسالهم ليبشروا بالدين المسيحي في مناطق إفريقيا الوسطى والغربية.[٢٣٩] ومن الواضح أن طلاب هذه المدرسة عبيد ويؤكد ذلك القول منسي القمص" هؤلاء أولاد نصارى أرسلوا إلى مالكي النوبة والحبشة"[٢٤٠] ولمكانة القديس تكلا هيمانوت في مصر لكونه شفيع أثيوبيا العظيم لدى سلاطين مصر، ومؤسس الرهبنة الحبشة، قام الرهبان الأحباش برسم صورة له بدير مارمينا.[٢٤١]

وفي القرن الرابع عشر ترجم كتاب " المجموع الصفوى " الذي ألفه صفي الدين بن العسال المتولي منصب كاتب الأسرار المجمع المقدس وأحدث في جزئه الثاني عما يجب أن تقوم عليه العلاقات بين الأفراد المسيحيين في كل شئونهم الدينية، فأعجب به الرهبان الأحباش بمصر إعجاباً شديداً وحضهم إلى ترجمته، واتخذوه أساساً لحياتهم المدنية والدينة والناموس الذي يسيرون بمقتضاه في حياتهم العامة والخاصة بعد أن أطلقوا عليه اسم (فتح نجست).[٢٤٢]

---

239 منسى القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٤٣٣.

240 نفس المرجع، ص ٤٣٣.

241 بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة الأنبا غرغريوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، جـ ١، ص ٦١.

242 زاهر رياض، مصر وإفريقيا، ص ٩٠، ٩١، وبالبحث وجد أن فتح نجست هو كتاب كبرانجشت (جلال الملوك) من أهم مصادر التاريخ الحبشي، بل هو المصدر الأساسي الذي تمت من خلاله بلورة فلسفة التاريخ الحبشي، وتظهر أهمية كبرانجست على مستويين الأول المستوى التفسيرى لتاريخ الحبشة وهو المستوى الذي يعطى لهذا التاريخ إطاره ويضعه داخل نسق لاهوتي معين، أما المستوى الثاني فهو المستوى التاريخي حيث يؤرخ كبرانجشت لتاريخ الحبشة داخل إطار لاهوتي الذي تم وضعه ويبدأ هذا التاريخ ببداية الخليقة وينتهي بظهور المسيحية، والكتاب نقلاً مباشراً عن الأدب القبطي في مصر، وقد اختلفت الأراء في زمن تأليف الكتاب فيما بين القرنين السادس والثالث عشر الميلاديين، إلا أن معظمها يؤكد على أنه قد كتب في القرن الثالث عشر الميلادي من أجل تمجيد الأسرة المالكة المسماة بالأسرة السليمانية ،التي تبوأت عرش المملكة بأثوبيا في ذلك الوقت، انظر، كبرانجشت (جلال الملوك) ص ١١ – ١٨.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- ابن إياس، محمد بن أحمد المصري (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م).

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢.

٣- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م).

- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

٤- البغدادي، أبي الحسن المختار بن عبدون

- رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات القاهرة.

٥- ابن تغري بردى، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

-الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، الرياض ١٩٨٣.

-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، سلسلة تراثنا، القاهرة ١٩٦٠.

-حوادث الدهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠.

٦- ابن الجيعان، الإمام شرف الدين يحيى بن المقري (ت ٨٥٥هـ / ١٤٨٠م)

- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٤.

٧- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٨م).

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٥هـ.

٨- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).

- تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦.

٩- الحميري، محمد عبد المنعم (من أ[ناء القرن الثامن الهجرة / الرابع عشر الميلادي).

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥.

١٠ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

– المقدمة دار القلم بيروت، ١٩٨٤.

١١- أبي داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).

- سنن أبي داوود، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٥.

١٢- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م).

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت د.ت.

١٣-الديلمي، شيرويه بن شهر دار أبو شجاع.

- الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦.

١٤ – السخاوي، شمس الدين محمد بن نعبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الكتاب الإسلامي القاهرة د.ت.

- التبر المسبوك في الذيل على السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٣١٥هـ

١٥- أبو سعيد، أبو الحسن على بن موسى (ت٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م)

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٠.

١٦- ابن سحنون، ابن سعيد التنوخي (ت ٢٠٤هـ /٨١٩م)

– المدونة الكبرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨.

١٧- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

- أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد عيسى، منشورات مركز المخطوطات، الكويت ،١٩٩٥.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي، القاهرة ،١٩٩٨.
- رفع شأن الحبشان، تحقيق محمد عبد الوهاب فضل، القاهرة ١٩٩١.

١٨- السنكسار،

- الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين ، مكتبة المحبة القاهرة ١٩٧٩.

١٩- الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩.

٢٠- الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري (من أعيان القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي).

- الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت.

٢١- ابن الصيرفي، علي بن داوود الجوهري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤ م)

- أنباء الهصر بأخبار العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٧٠.
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٧٠.

٢٢- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ /١٥٤٦م)

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (مصر والشام) تحقيق محمد مصطفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤.

٢٣- ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ / ١٤١٨م)

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل

القاهرة ١٩٦١.

٢٤- علي مبارك،

- الخطط التوفيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢٥- القلقشندى، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، جـ٤ـ ٥.

٢٦- أبو المكارم، سعد الله بن جرجس بن مسعود (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

-الكنائس والأديرة، إعداد صموئيل، القاهرة ٢٠٠٠.

٢٧- المالقي، ابن عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي (ت ١٠٩٦هـ /١٦٨٤م)

- أدب الحسبة، تحقيق حسين الزين، مؤسسة دار الفكر الحديث بيروت ١٩٨٧.

٢٨- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)

- الأحكام السلطانية والولايات الإسلامية، شركة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده مصر ١٩٧٣.

٢٩- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

- الإفادة والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د.ت.

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٩٥

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٧٠، واستكمله سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٧٣.

٣٠-مؤلف مجهول،

- كبرا نجشت (جلال الملوك) نصوص حبشية قديمة ترجمة مجدي عبد الرازق سليمان، مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة

٣١- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/١٣٢٢م)

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣.

٣٢- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م)

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١- إبراهيم طرخان،

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠.

٢- أحمد مختار العبادي،

- قيام دولة المماليك الأولى، الإسكندرية ١٩٨٢.

٣- بتشـــر،

- تاريخ الأمة القبطية، القاهرة ١٩٠٧.

٤- بتلـــــــر، ألفريد،

- الكنائس القبطية القديمة في مصر، ترجمة إبراهيم سـلامة، مراجعة الأنبا غرغريوس الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣.

٥- بوركهارت،

- رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد انـدراوس، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة د.ت.

٦- تامـــــرات،

- القرن الإفريقي السلمانيون المنتسبون إلى الملك سليمان الحكـيم في إثيوبيا ضمن تاريخ إفريقيا العام، منظمة اليونسكو.

٧-توفيق الطويل،

- التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨.

٨-جوزيف كي زيربو:

- تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية، ليبيا ٢٠٠١.

٩- حكيم أمين،

- دراسات في الرهبانية والديرية المصرية القاهرة د.ت.

١٠- خطاب عطية،

- التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي القاهرة د.ت.

١١- ديمتري رزق،

- قصة الأقباط في الأرض المقدسة، القاهرة بدون تاريخ.

١٢ رجب محمدعبد الحليم،

-الإسلام جنوب الصحراء الأفريقية ،موسوعة سفير القاهرة .

١٣ – ريتشارد مورتيل،

- الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض ١٩٨٥.

١٤- راشد البراوي،

- الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦١.

١٥- راهب من دير البراموس،

- الرهبنة الحبشية القاهرة ،١٩٩٩.

١٦- رجب محمد عبد الحليم،

- العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور

الوسطى، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٥.

١٧- رءوف حبيب،

- تاريخ الرهبنة الديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم مكتبة المحبة القاهرة د.ت.

١٨- زين العابدين شمس الدين نجم،

- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ،القاهرة .

١٩ - زاهر رياض،

- الإسلام في أتوبيا، دار المعرفة القاهرة ١٩٦٤.
- كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، القاهرة ١٩٦٢.
- مصر وأفريقيا، القاهرة ١٩٦٣.

٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور،

- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية،القاهرة ،١٩٧٦.
- المجتمع المصري في العصر المملوكي، دار النهضة العربية، القاهرة ،١٩٦٢.

٢١- صبحي لبيب،

- الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية، بحث ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٦.

٢٢- طارق منصور،

- قطوف الفكر البيزنطي - ج١ - الأدب، القاهرة،٢٠٠٢.

٢٣- عبد السلام الترمانيني،

- الرق، عالم المعرفة عدد ٢٣ الكويت، ١٩٧٩.

٢٤- عبد المجيد عابدين،

- بين الحبشة والعرب دار الفكر العربي القاهرة بدون تاريخ.

٢٥- عبد اللطيف حمزة،

- الحركة الفكرية في مصر الأيوبية المملوكية الأولى،

دارالفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧.

٢٦- عبد المسيح صليب المسعودي،

- تحفة السائلين في ذكر أديرة رهبان المصريين، القاهرة ١٩٣٢.

٢٧- على السيد محمود،

- الجواري في مجتمع القاهرة المملوكيـــة، الهيئـــة المـــصرية العامـــة للكتاب القاهرة ١٩٨٨.

٢٨- عمر طوسون،

- وادي النطرون، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٣.

٢٩- عبد الوهاب محمد المسيري،

- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز دراسات الأهرام القاهرة ١٩٧٤.

٣٠- الأنبا غرغريوس،

- دير المحرق تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، القاهرة بدون تاريخ.

٣١- فاطمة محمد حسن المباركي ،

- الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي ،رسالة ماجـــستير غيـــر منشورة جامعة أم القري ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٢- فتحي غيث ،

الإسلام والحبشة عبر التاريخ ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٣٣- لطفي أحمد مختار،

- وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تـــاريخ المصريين،عدد ١٤١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.

٣٤- لبيب حبشي، زكي تادرس،

- في صحراء العرب والأديرة الشرقية، القاهرة ١٩٩٣.

٣٥- مجموعة مؤلفين،

- تاريخ الحضارة المصرية العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي القاهرة.

٣٦- محمد أحمد دهمان،

- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملـوكي، دار الفكـر سـوريا بيروت ١٩٩٠.

٣٧- محمد محمد أمين،

- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠.

٣٨- محاسن الوقاد،

- الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، المصرية العامة للكتاب سلـسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٩.

٣٩- محمد مختار،

- هداية المريد في شراء العبيد وتقليب العبيد ،القاهرة ١٩٧٧.

٤٠- محمد جمال الدين سرور،

- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي.

٤١- محمد رمزي،

- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣.

٤٢- محمد عبد الرازق،

- الناصر محمد بن قلاوون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة أعـلام العرب، القاهرة بدون تاريخ.

٤٣- محمد قنديل البقلي،

- الطرب في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٤.

٤٤- مصطفي عبد الكريم الخطيب،

- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٦.

٤٥- مصطفي عبد الله شيحه،

- دراسات في العمارة والفنون القبطية، القاهرة ١٩٨٨.

٤٦- مكي شبيكه ،

- السودان عبر القرون ،دار الثقافة لبنان .

٤٧- ملوك ميخائيل،

- باخوميوس، رسالة مارمينا الرابعة، مطبوعات جمعة مارمينا العجائبي، القاهرة ١٩٥٠

٤٨- القمس ميخائيل تادرس السرياني،

- الأديرة المصرية العامرة، القاهرة ١٩٦٨.

٤٩- منسي القمص،

- تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٢.

٥٠- نعوم شقير ،

- جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة لبنان ١٩٦٧.

٥١- نعيم زكي حسنين،

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

ثالثا ــ الدوريات:

١- إبراهيم طرخان،

- الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م ٨ القاهرة ١٩٥٩.

٢- زاهر رياض،

- الشفتا في أتوبيا منذ العصور الوسطى، بحث في مجـــلة كلـــية الآداب جامعة القاهرة، م١٩ حـــ٢، سنة ١٩٦١.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور،

- بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبـشة فـــي العـــصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، حـــ٤ القاهرة ١٩٤٨.

٤- صبحي لبيب،

- سياسة مصر التجارية في عصري الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخيـــة المصرية، عدد ٢٨-٢٩ القاهرة ١٩٨١-١٩٠٢.

٥- محمد كامل حسين،

- بين التشييع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيـــــين والمماليـك، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة عدد ٦ ديسمبر ١٩٥٤.

٦- مراد كامل، (دكتور)

- الرهبنة الحبشية، مقال ضمن رسالة مارمينا مطبوعات جمعيـــة مارمينـــا العجايبي إسكندرية ٢٠٠١.

٧- موريس مكرم،

- ابن كبر، رسالة مارمينا الرابعة إسكندرية ١٩٥٠.

٨- يعقوب مويزر،

- تاريخ مجيدا أنطواي وآثار رهبنة انمحت، مقال ضمن رســـالة مارمينـــا مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، الإسكندرية، ٢٠٠١.

رابعا ــ المراجع الأجنبية:

1- Budge, E.A.W., *A History of Ethiopian Nubia and Abyssinia*, London, 1907.

2- *Encyclopedia of Islam.*

3- Trminghom, J. S., *Islam in Esthiopia*, Oxford, 1952.